

تأريخ القرآن

تأليف
إبراهيم الأبياري

طبعة مزينة منقحة

دار الكتب المصرية

القاهرة

دار الكتب العلمية

بيروت

تأريخ القرآن

تأليف
إبراهيم الأبياري

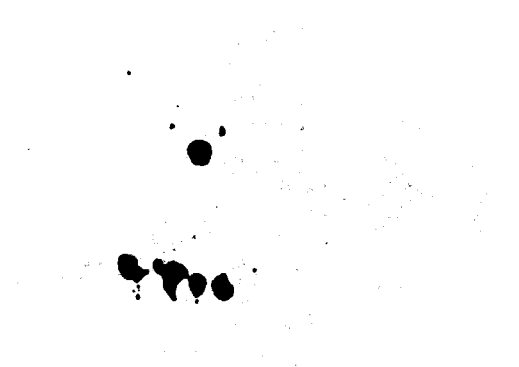
طبعة مزينة منقحة

الناشرون

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة





تَارِيخُ الْقُرْآنِ

I.S.B.N. 977 9277050 - 9

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦١٥٦٣ - ٨٦٠٧٩٢ - فاكس: ٢٥١٤٣٣ (٩٦١١)

ص.ب. ١١/٨٣٣ أو ١٢٥٣٥٢ - بيروت - لبنان

TELEX: DKL 23715 LE

ATT: MISS MAY HASSAN EL - ZEIN

FAX: (9611) 351433

برقياً: دالكهان

جميع
حقوق
الطبع
والنشر
محفوظة
للناشرين

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٢٣١ فاكس: ٣٩٢٢١٥٧ (٢٠٢)

ص.ب. ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً: كلاس

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181

ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN

FAX: (202) 3924657

الطبعة الثالثة

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

Third Edition

1991 A.D — H 1411

مقدمة

الطبعة الثانية

هذا كتاب عن تأريخ القرآن الكريم ، تسبق هذا التاريخ كلمة
عن حياة الرسول ، صَلَّى الله عليه وسلَّم .

وقد صدرت منه الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) ، أى منذ
نحو من ستة عشر عامًا ، ولقد كنت حريصًا على أن أعيد طبعه بعد
نفاد طبعته الأولى منذ أعوام ، ولكن الأيام سَوَّفت .

وهأنذا أقدمه فى طبعته الثانية لكل من هم معنيون بالدراسات
الإسلامية ، بعد أن نظرتُ فيه نظرةً صحَّحت ما كان قد وقع فى طبعته
الأولى من هنات ، وبعد أن زِدْتُ فى هذه الطبعة الثانية كثيرًا .

وعسَى ، بما فعلت أولاً وثانيًا ، أن أكون قد أدَّيت واجبًا للتراث
العربي الإسلامي .

إبراهيم الأبيارى

والله ولى التوفيق

القاهرة :

جمادى الثانية سنة ١٤٠١ هـ

أبريل سنة ١٩٨١ م

مقدمة

الطبعة الأولى

رسالة ورسول تَلَقَّتْهُمَا الجزيرة العربية منذ أربعة عشر قرناً ، فبادهتهما بالتأبى أولاً ، ثم لم يَمُضْ غيرُ قليل حتى تفتَّحت لهما القلوب لينة طيعة ، وإذا عُدَاة الرسالة حُماة الرسالة ، وإذا خُصوم الرسول يستأمرون بأمر الرسول ، وإذا هم داعون لهما في مشارق الأرض ومغاربها . وإذا مع البيئة العربية بيئات وبيئات تُؤْمِنُ بتلك الرسالة وتؤمن بذلك الرسول ، وإذا رسالة هذا الرسول يَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا اليومَ نحو من أربعمائة مليون ينتشرون في أنحاء العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، يحفظ عليهم هذه الرسالة الكريمة قرآنٌ كريمٌ فيه بيانٌ وتفصيل .

ولم يكن شيء أحبَّ إلى المسلم من أن يعرف رسوله ، ويعرف هذا الكتابَ الجامعَ لرسائله ؛ من أجل هذا شُغِفَ المسلمون منذ أن عرفوا الإسلامَ بجمع كلِّ ما يتَّصل بالرسول ، ثم مَضَوْا يَتَدَارِسُونَ هذا الذي جمَعوه ، يُفِيضُونَ فيه وَيَسْتَوْعِبُونَ ، كما جَمَعُوا حول القرآن دراسات وعُلُوماً تَجِلُّ عن أن تُحصى ، وتَكْثُرُ عن أن تُعَدَّ .

وأصبح عزيزاً أن تَجِدَ في خِصْمٍ هذا الفَيْضَ المُستوعب كلمات عن الرسول مجموعات ، تصلك بحياته صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في إيجاز جامع ، يعلو عن الاختصار المُفَوِّت ، ويَهْبِطُ عن الاسترسال المُشْتَت .

كما أصبح عزيزاً أن تَجِدَ بين هذه الكثرة الكثيرة من علوم القرآن كتاباً يُلَخِّصُ لك هذا كُلُّهُ في يُسر ، ويُلِمُّ به في غير عُسْر .

وقل أن تجد من ناشتتنا اليوم - بعد أن بعدت بهم ثقافتهم شيئا ما -
من يملك أن يجيب نفسه بله سائله عن الكثير مما يتصل بالرسول
ورسالته .

لهذا أردت أن أقدم هذا الكتاب ألخص فيه شيئين :

١- حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تلخيصا يقف عند الإجمال
الجامع ، ولا يعرض للتفصيل المشتت .

٢- وأن أجعل هذا تمهيدا لتلخيص ثان ميسر مبين ، يجمع كل
ما يتصل بالقرآن الكريم .

وإن الحِرْص الذى جمع السلف على قراءة هذه المَطُولَات لواجد
حِرْصًا مثله سوف يجمع الخلف على قراءة هذه المختصرات ، فالناس
بخير ، ما علموا فإن هم جهلوا ضلُّوا ، وما أرغَبَ الناس عن أن يجهلوا
فيضلُّوا ، وهم يملكون أن يعلموا فيسلموا .

وأرجو أن أكون بالذى صنعت قد وفيت وأرضيت .

إبراهيم الأبيارى

القاهرة : شعبان ١٣٨٤هـ

ديسمبر ١٩٦٤م

البَابُ الْأَوَّلُ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١ - رسول الله

هو : مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب «شَيْبَة» بن هاشم «عمرو»
ابن عبد مناف «المُغِيرَة» بن قُصَيَّ «زَيْد» بن كِلَاب بن مُرَّة بن كَعْب
ابن لُؤَيَّ بن غَالِب بن فِهْر بن مَالِك بن النُّضْر بن كِنَانَة بن خُزَيْمَة
ابن مُدْرِكَة «عامر» بن مُضَر بن نَزَار بن مَعَد بن عَدْنَان .

إلى هنا يَنْتَهِي النِّسْبُ الصَّحِيحُ ، وما فوق ذلك فهو من صُنْع
النَّسَابِينَ .

وقد حكى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا انتسب لم يتجاوز
في نسبه عدنان ثم يُمسك ويقول : كَذِبُ النَّسَابُونَ .

وأُمّه : آمَنَةُ بنت وَهَب بن عبد مناف بن زُهْرَة بن كِلَاب بن مُرَّة
ابن كَعْب بن لُؤَيَّ بن غَالِب بن فِهْر .

يُلْتَقَى نَسَبُهُمَا مع نَسَبِ أَبِيهِ ، صَلَّى الله عليه وسلم ، عند جَدِّهِمَا الأعلى :
كِلاب بن مُرَّة .

ولقد مات أبوه عبد الله بالمدينة ، وأُمُّه حَامِلٌ به لشَهْرَيْنِ ، وكان
قد خَرَجَ في تجارة ، فَمَرَضَ ، فَعَرَّجَ بالمدينة يُلِمُ بِأَخْوَالِهِ من بنى النَجَّار .
فَأَقَامَ عندهم شَهْرًا ، مات بعده ، عن خمسة وعشرين عامًا .

فلقد كان هاشم بن عبد مناف قدم المدينة ، فتزوج سَلَمَى بنت
عمرو ، أحد بنى عدى بن النَجَّار .

فولدت لهاشم : شَيْبَة ، فتركه هاشم عندها حتى كان وصيفًا ، أى
غلامًا دون المراهقة ، أو فوق ذلك .

ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه ، وكانت مشادة بين الأم والعم ، انتهت برضى الأم ، وأذنت لابنها أن يرحل مع عمه . فاحتمله المطلب ، ودخل به مكة مُردِّفه معه على بعيده ، فقالت قريش : عبد المطلب ابتاعه ، فيها سُمِّيَ شَيْبَةً : عبد المطلب . فقال المطلب : ويحكم ! إنما هو ابن أخي هاشم ، قدمت به من المدينة . ومن هنا كانت هذه الخُولة (١) .

وكان مولده ، صَلَّى الله عليه وسلم ، يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول . عام الفيل (٢) « ٢٠ أبريل ٥٧١ » ، على الصحيح (٣) ، بالدار التي عند الصفا (٤) ، والتي كانت بعدُ لمحمد بن يوسف أخى الحجاج ، وقد بنتها زُبَيْدَةُ مَسْجِدًا حين حَجَّت . وكانت قابله ، التي نزل على يديها : الشفاء ، أم عبد الرحمن بن عوف . وأرضعته امرأة من بنى سعد بن بكر بن هوازن ، يقال لها : حَلِيمَةُ بنت أبي ذؤيب . واسم أبيه في الرضاعة : الحارث بن عبد العزى ، من بنى سعد بن بكر بن هوازن .

(١) السيرة لابن هشام (١ : ١٤٤ - ١٤٥) طبعة الحلبي .
(٢) رسالة محمود حملى الفلسكى (١٠٣٣ هـ) الترجمة العربية طبعة بلاق سنة ١٨٨٩ م .

(٣) وفد الفيل لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمائة واثنين وثمانين لئلا سَكندر ، وسنة عشروماتين من تاريخ العرب الذى أوله حجة الغدر ، وسنة أربع وأربعين من ملك أنوشروان (البدء والتاريخ : ٤ : ١٣٢) .
(٤) الصفا : جبل بين بطحاء مكة والمسجد .

وكان إخوته من الرضاعة : عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، والشيماء حذافة بنت الحارث .

وكانت حليلة بنت أبي ذؤيب تُحدث :

أنها خرجت من بلدها مع زوجها ، وابن لها صغير تُرضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء .

قالت حليلة : وكان ذلك في سنة شهباء لم تُبق لنا شيئاً ، ومعنا شارف (١) لنا ، والله ماتَبِض (٢) بقطرة ، وماننام ليلنا أجمع من صبيتنا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي مايغنيه ، وما في شارفنا مايغنيه .

وتقول : حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فمأنا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فتأباه ، إذا قيل لها : إنه يتيم ، وذلك أننا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ، وماعسى أن تصنع أمه أو يصنع جده ! وكنا نكرهه لذلك .

فما بقيت امرأة قَدِمْتُ معي إلا أخذت رضيعاً غيري .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه .

قال : لاعليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

(١) شارف : ناقة مسنة .

(٢) تبض : ترشح .

قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملني على ذلك إلا أني لم أجد غيره .

ثم قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رَحْلي ، فلما وضعته في حجرى أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى رَوَى ، وشرب معه أخوه حتى رَوَى ، ثم ناما ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا رياء وشبعاً ، فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبي ، حين أصبحنا : فاعلمى والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة .

قالت : فقلت : والله أني لأرجو ذلك .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذبَ منها ، فكانت غنمى تروح على لُبْنًا حين قدمنا به معنا شباعاً ، فنحلب ونشرب .

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه ففصلته ، فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته (١) .

وحين بلغ محمد ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء - موضع بين مكة والمدينة - وعمرها ثلاثون عاماً .

(١) السيرة لابن هشام (١ : ١٧١ - ١٧٣) .

فحملته أم أيمن ، وهي حاضنته ومولاة أبيه ، إلى مكة .

فكان في حجر عبد المطلب (١) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيهِ إجلالاً له .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب ، إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني ، فوالله إن له لشأنا ، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع (٢) .

وبعد وفاة آمنة بستين تُوفى جده عبد المطلب ، وكان يكفله ، وعُمِّرُ محمد عندها ثمانى سنين .

فكان محمد بعد وفاة جدّه عبد المطلب مع عمّه أبي طالب . وأبو طالب وعبد الله - أبو رسول الله - أخوان لأب وأم ، وأمهما : فاطمة بنت عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم .

ولقد كان لعبد المطلب من الأولاد عشرة نفر وست نسوة :

العباس ، وحمزة ، وعبد الله ، وأبو طالب - واسمه عبد مناف -

(١) البدء والتاريخ للبلخي (٤ : ١٣٣) .

(٢) السيرة لابن هشام (١ : ١٧٨) .

والزُّبَيْر ، وهو أكبر أعمام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى كان يرقصه ويقول :

محمد بن عَبدِمْ عشت بعيش أنعم

والحارث ، وحَجَل ، والمقوم ، وضِرار ، وأبو هُب ، واسمه عبد العزى ،
وكنى أباهب ، لإشراق وجهه .

ثم صفية ، وأم حكيم البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة ، وأزوى ، وبرّة .
وكانت أم عبد الله وأبى طالب ، كما قلت قبل ، والزُّبَيْر ، وجميع
النساء غير صَفِيّة : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم (١) .

ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرًا إلى الشام ، فلما تهيأ
للرحيل ، وأجمع المسير ، تعلق به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فرق له
أبو طالب ، وقال : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدًا ، فخرج
به معه ، فلما نزل الركب بُصرى ، من أرض الشام ، وبها راهب يقال له :
بحيرى ، فى صومعة له ، وكان إليه علمُ أهل النصرانية ، فلما نزلوا به
قريبًا من صومعته ، صنع لهم طعامًا ، وكان رأى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
وهو فى صومعته ، وغمامة تظله بين القوم ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من
صومعته ، ثم أرسل إليهم : إني قد صنعت لكم طعامًا يامعشر قريش ،
وأنا أحب أن تحضروا كلكم ، صغيركم وكبيركم .

ولما رأى بحيرى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، جعل يلحظه لحظًا شديدًا ،
وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته .

(١) السيرة لابن هشام (١ : ١١٣ - ١١٥) .

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب ، فقال له : ما هذا الغلام منك ؟
قال : ابني .

قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه
حيًا : قال أبو طالب : إنه ابن أختي . قال بحيرى : فما فعل أبوه ؟ قال
أبو طالب : مات وأمه حُبلى به . قال بحيرى : صدقت ، فارجع بابن
أخيك لى بلده ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم (١) .

وحين بلغ محمد أربعة عشر عامًا - أو خمسة عشر - كانت حرب
الفَجَار ، بين قريش ومن معهم من كِنانة ، وبين قيس عيلان . ولقد شهد
محمدُ بعض أيامها ، أخرجه أعمامُه معهم يَنْبُلُ عليهم ، أى يرد عليهم
نبل عدوهم إذا رموهم به .

وسُميت هذه الحرب : حرب الفَجَار ، وكانت وقعات ، لما صنعوا
فيها من الفُجور فى الشهر الحرام ، وذلك أن النعمان بن المنذر ، عامل
أبرويز على الحيرة ، كان يبعث كل سنة بلطيمة (٢) إلى سوق عُكاظ ،
فى جوار رجل من العرب ، فلما كان فى هذه السنة ، قال : من يُجير هذه
العير ؟ قال عروة الرّحال بن عُقبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر
ابن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن : أنا أيها الملك . فقال له البرّاض
ابن قيس ، أحد بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كِنانة : أتُجيرها
على كِنانة ؟ قال : نعم ، وعلى الخلق جميعًا .

(١) السيرة لابن هشام (١ : ١٩١ - ١٩٥) .

(٢) اللطيمة : الجمال التى تحمل التجارة .

(تأريخ القرآن)

فَسَلَّمَ النِّعْمَانُ اللَّطِيْمَةَ إِلَى عُرْوَةَ ، وَتَبِعَهُ الْبَرَّاضُ يَطْلُبُ غَفْلَتَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بَتَيْمَنُ ذِي طَلَالٍ (١) أَصَابَ فُرْصَةً مِنْ عُرْوَةَ ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ وَقَتْلَهُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ .

وَتَسَامَعَ النَّاسُ بِهِ ، فَخَرَجَتْ كِنَانَةُ وَقْرِيشُ يَطْلُبُونَ بِشَارَ عُرْوَةَ ، وَخَرَجَتْ قَيْسُ عَيْلَانَ لِأَجْلِ الْبَرَّاضِ ، وَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا بِعِكَازٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، ثُمَّ تَحَاجَزُوا وَتَدَاعَوْا إِلَى الصِّلَحِ .

ثُمَّ اجْتَمَعَتْ قَرِيشُ بِدَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ ، وَتَحَالَفُوا عَلَى أَنْ يَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً حَتَّى يَأْخُذُوا لِلْمَظْلُومِ حَقَّهُ ، فَسَمَّتْهُ قَرِيشُ : حَلْفَ الْفُضُولِ .

وَلَقَدْ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفِيهِ يَقُولُ : لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ مَا أُحِبُّ أَنْ لِي بِهِ حِمْرُ النِّعْمِ (٢) ، وَلَوْ أَدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ (٣) .

وَلَمَّا بَلَغَ مُحَمَّدٌ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ عَامًا تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلَادِ ابْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ ، يَلْتَقِي نَسَبُهَا مَعَ نَسَبِهِ فِي جَدِّهِمَا الْأَعْلَى قُصَيِّ ، كَمَا يَلْتَقِي نَسَبُهَا مَعَ نَسَبِ أُمِّهِ آمَنَةَ فِي كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ .

وَكَانَتْ خَدِيجَةُ أَوَّلَ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا مُحَمَّدٌ ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ غَيْرَهَا حَتَّى مَاتَتْ .

(١) تَيْمَنُ ذُو طَلَالٍ : وَادٍ إِلَى جَانِبِ فَدَكَ (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ) .

(٢) أَيْ لَا أَحَبُّ نَقْضِهِ وَإِنْ وَضَعَ حِمْرُ النِّعْمِ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ .

(٣) الْبَدَأُ وَالتَّارِيخُ (٤ : ١٥ - ١٣٧) .

وقد عَرَفَتْ خديجةً محمدًا حين خرج في تجارة لها إلى الشام في رحلته الثانية ، مع غلامها مَيْسِرَة . وكانت رحلته الأولى إلى الشام حين خرج مع عمّه أَبِي طالب ، وسنّه اثنا عشر عامًا ، حنَّها ميسرة عن صدقه وأمانته فرغبت فيه وسعت إلى الزواج منه .

وولدت خديجةً لمحمد أولاده كُلِّهم ، إلا إبراهيم ، فإنه من مارية القبطيّة ، فولدت له القاسم ، وبه كان يُكنى ، والطّيب « الطاهر » ، ورقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

ومات القاسم والطّيبُ في الجاهلية . وأدركت بناته كلهن الإسلام وأسلمن .

وحين بلغ محمد خمسة وثلاثين أخذت قريش في تجديد بناء الكعبة ، وكانت قد أصابها حريق ، ومن بعد الحريق سئل . وحين بلغت قريش موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يكون له الشرف في وضعه موضعه ، وكاد الخلاف يُثير بينهم حربًا ، ثم انتهوا إلى أن يكون الفصل بينهم إلى أوّل داخل عليهم من باب بنى شَيْبة . وكان محمد أول داخل عليهم من هذا الباب . فارتضوه حَكَمًا فيما شَجَرَ بينهم ، فبسط محمد رداءه ووَضَعَ الحجر عليه ، وأمر كُلَّ قبيلة أن تأخذ بِطَرَفٍ من أطراف الرِّداء ، حتى إذا ما استَوَوْا رفع الحجر بيديه ووضع مكانه .

ولقد عَرَفَتْ قريشُ محمدًا صبيًّا فلم تعهد عليه ماتعهد مثله على الصّبيان من إسفاف أو تدنٍّ ، وعَرَفَتْه يافعًا فلم تعدّ له نَزْوَةً أو زَلَّةً ، ثم عَرَفَتْه زَوْجًا في سنٍّ مُبكرة ، فعرفت أظهر الأزواج ذِيلاً .

وهو مُنذ أن درَج بين أهله ووَعى كان الصادق الأمين ، لا يقول إلا

صِدْقًا ، وَلَا يُعْطَىٰ أَوْ يَأْخُذُ ، إِلَّا أَمِينًا حِينَ يُعْطَى ، أَمِينًا حِينَ يَأْخُذُ .
أَمِينًا حِينَ يُسْتَشَارُ وَيُشِيرُ ، وَالنَفْسُ إِنْ مَلَكَتِ الصَّدْقَ وَالْأَمَانَةَ مَلَكَتْ
مَابَعْدَهُمَا مِنْ كُلِّ مَا هُوَ مَحْمُودٌ مِنَ الصِّفَاتِ ، وَهَكَذَا كَانَ مُحَمَّدٌ قَبْلَ
أَنْ يَبْعَثَهُ اللَّهُ رَسُولًا .

وَلَقَدْ حُبَّبَ إِلَى مُحَمَّدٍ التَّحَنُّثُ وَالتَّحَنُّفُ ، شَأْنُ الصَّادِقِينَ عَنْ مَتَاعِ
الْحَيَاةِ ، الْعَازِفِينَ عَنْ لَبِنِهَا الْمُفْضَى إِلَى الْإِسْتِنَامَةِ إِلَيْهَا ، فَكَانَ يَحْتَكِفُ
فِي حِرَاءٍ - جَبَلٍ مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنْهَا - شَهْرًا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ ،
يَجْعَلُهُ خَالِصًا لِعِبَادَةِ رَبِّهِ ، عَلَى مَارَسَمِ إِبْرَاهِيمَ ، وَمِنْ بَعْدِهِ إِسْمَاعِيلَ ،
عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

وَبَقِيَ مُحَمَّدٌ عَلَى هَذَا الَّذِي أَخَذَ بِهِ نَفْسَهُ ، يَخْتَلِفُ إِلَى غَارِ حِرَاءٍ ،
شَهْرًا مِنْ كُلِّ عَامٍ ، إِلَى أَنْ كَانَتْ السَّنَةُ الَّتِي اخْتَارَهُ اللَّهُ فِيهَا رَسُولًا لِرِسَالَتِهِ ،
وَكَانَ عِنْدَهَا فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمرِهِ .

٢- الجزيرة العربية قبل الرسالة

ولننظر فيما كانت عليه الجزيرة العربية قبل رسالة محمد :

فإلى الغرب والشمال من الجزيرة العربية كانت المملكة البيزنطية « الروم » ، وفي يديها مِصرُ والشامُ ، وإلى الشرق والجنوب من الجزيرة العربية كانت مملكة الفُرس ، وفي يديها العِراقُ واليمن ، وكلتا المملكتين كانت طامعةً في السيطرة على الجزيرة العربية ، وكانت بينهما بسبب ذلك حروبٌ طاحنة ، امتدت حقبةً طويلةً .

ولقد أظَلَّ الإسلامُ الجزيرةَ والحربُ قائمةً ، لم تَخُذْ نَارُهَا إِلَّا مع العام الثامن والثلاثين بعد السَّنة .

وحين أَخَفَقَ الرومُ في بَسْطِ نُفُوذِهِمْ على الجزيرة حَرْبًا أَخَذُوا يَنْفُذُونَ إِلَيْهَا سِلْمًا ، فمَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى الْغَسَّاسَةِ في شَمَالِ الْجَزِيرَةِ ، يَجْعَلُونَ مِنْهُمْ أَعْوَانَهُمْ على هَذَا الْغَزْوِ السَّلْمِيِّ ؛ وَكَمَا فَعَلَ الرُّومَانُ فَعَلَ الْفُرسُ ، فَإِذَا هُمْ الْآخَرُونَ يَمْدُدُونَ أَيْدِيَهُمْ إِلَى الْمَنَازِرَةِ ، مُلُوكِ الْحِيرةِ في الشَّرْقِ ، يَجْعَلُونَ مِنْهُمْ أَعْوَانَهُمْ على الْوُقُوفِ أَمَامَ الْغَزْوِ الرُّومَانِيِّ .

وَإِذَا كَانَ الرُّومُ نَصَارَى لَقِنَ الْغَسَّاسَةُ طَرَفًا مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَإِذَا كَانَ الْفُرسُ مَجُوسًا أَخَذَ الْمَنَازِرَةُ بِطَرَفٍ مِنَ الْمَجُوسِيَّةِ ، وَإِذَا النَّصْرَانِيَّةُ تَعَرَفَ طَرِيقُهَا إِلَى الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ الشَّامِ ، كَمَا التَّمَسَّتِ الْمَجُوسِيَّةُ طَرِيقُهَا إِلَى الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ الْحِيرةِ . وَإِذَا الْحَرْبُ الَّتِي كَانَ يَلْتَقِي فِيهَا السِّيفُ بِالسِّيفِ تَصَبَّحَ وَقَدْ اُلْتَقَى فِيهَا الرَّأْيُ بِالرَّأْيِ ، يَقِفُ الْمَجُوسُ ، وَمِنْ وَرَائِهِمُ الْيَهُودُ ، لِلنَّصَارَى ، وَيَقِفُ النَّصَارَى لِلْمَجُوسِ وَالْيَهُودِ ، وَالْجَزِيرَةُ تَشْهَدُ هَذَا الصَّرَاعَ فِي الرَّأْيِ فَتَشَارِكُ فِيهِ ، مُوزَّعَةً بَيْنَ

المجوسية واليهودية والنصرانية ، ويزيد البيثة العربية توزعاً توزعُ اليهود إلى ربّانيين وقرائين وسامريين ، وتوزعُ النصارى إلى يعاقبة ونساطرة وأريوسيين ، هذا إلى توزع الجزيرة العربية توزعاً آخر بين عبادة الكواكب وعبادة الأصنام ، وإذا العرب أوزاعُ في الرأى ، أشتات في الفكر. يُمسك كلُّ بما يحلّوله ويطيّب ، وإذا هم قد نبذوا الكثير ممّا توارثوه من شريعة إبراهيم وإسماعيل ، لا يستمسكون منها إلا ببقية قليلة كانت تتمثل في تعظيم الكعبة والحج إلى مكة ، وإذا هم بعد هذا أمة أضلّت الضلالات ، واستهوتها الموبقات ، واستحوذت على عقولها الخرافات . تذلل للأصنام ، وتستنم للكهّان ، وتستملّي الأزلام ، وإذا أخلاقها تُراق ، تهون على موائد الخمر والميسر ، وإذا عدلها يُفوّته عليها بغى الأقوياء ، وإذا أمنّها ليس لها منه إلا هباء .

٣ - الإرهاص بميلاد الرسول

وشَخَصَتْ أَبْصَارُ الْقَلَّةِ الواعية من رجالات الجزيرة الرّاشدين إلى السماء ، تَنَشَّدُ الْعَوْنَ وَتَسْتَمَطِرُ الرَّحْمَةَ ، وَجَمَعَتِ الْبَلْبَلَةُ الْفِكْرِيَّةَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ من هذه الْقَلَّةِ الواعية - هم : وَرَقَةَ بن نوفل ، وَعُبَيْدَ اللَّهِ بن جَحْش ، وَعُثْمَانَ بن الحُوَيْرِث ، وَزَيْدَ بن عمرو بن نُفَيْل - يَنْظُرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأُمْتِهِمْ ، فَمَا انْتَهَوْا إِلَى رَأْيٍ ، وَلَا أَجْمَعُوا عَلَى مَا يَخْتَارُونَ ، وَإِذَا هُمْ أَشْنَأَتْ حِينَ انْفِضُّوا ، كَمَا كَانُوا أَشْنَأَتْ حِينَ اجْتَمَعُوا ، لَمْ يَقْرَأُوا عَلَى شَيْءٍ ، لِأَنَّ الْأَمْرَ كَانَ أَجَلًا مِنْ أَنْ يَحْمِلَ عَيْنُهُ غَيْرُ رَسُولٍ مُؤَيَّدٍ مِنَ السَّمَاءِ .

وكانت الإرهاصات تُشير إلى ميلاد هذا الرسول ، وإلى أن هذا الرسول هو محمد .

فلقد سَعِدَتْ مُرْضِعَتُهُ حَلِيمَةُ بِهِ ، وَانْتَقَلَتْ مِنْ شَقَاوَةٍ إِلَى نَعِيمٍ ، وَمِنْ شِدَّةٍ إِلَى لِينٍ ، وَلَقَدْ شَبَّ لَا يَأْخُذُ فِيمَا يَأْخُذُ فِيهِ لِذَاتِهِ مِنْ لَعِبٍ ، وَمَاعُهِدَتْ عَلَيْهِ كَذِبَةٌ وَلَا زَلَّةٌ ، وَمَاعَكَّفَ عَلَى صَنْمٍ ، وَلَا شَرِبَ خَمْرًا ، وَلَا وَضَعَ يَدَهُ فِي مَيْسَرٍ ، وَلَا اسْتَنَامَ لَتُرْهَةٍ ، وَلَا شَارَكَ فِي قَبِيحَةٍ ؛ بَلْ عَاشَ عَفَاً صَادِقًا أَمِينًا حَلِيمًا رَحِيمًا ، تَجَرَّ لَخْدِيجَةً قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ لَهَا زَوْجًا فَبَهَرَتْهَا أَمَانَتُهُ ، وَرَأَى لِلْقُرَشِيِّينَ حِينَ اخْتَلَفُوا فِي وَضْعِ الْحَجَرِ ، وَكَادَتْ تَثُورُ بَيْنَهُمُ الْحَرْبُ ، فَكَانَ نَعِيمَ الرَّائِي ، وَنَفَرَ مِمَّا كَانَتْ تَفْعَلُهُ الْعَرَبُ مِنْ وَأْدِ لِبْنَاتِهِمْ ، وَكَانَ حَرْبًا عَلَيْهِ ، وَاشْمَازَ مِمَّا كَانَتْ تَسْتَمْتَعُ بِهِ الْعَرَبُ مِنْ مُوَبِقَاتٍ ، وَكَانَ حَرْبًا عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَرْبًا عَلَيْهِمْ ، وَحِينَ بَرَزَ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي بَيْتِهِ ، وَبَيْنَ قَوْمِهِ ، بَرَزَ النَّاظِرُونَ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ

يَعْرِضُونَ مَا يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عَلَى مَا يَجِدُونَهُ مَرْثِيًا وَمَسْمُوعًا ، فإذا هم يرون في محمد ، هذا الرسول المُرْتَقِب .

فلقد جاء على لسان موسى في وصيته ما يُبَشِّرُ بعيسى ، ثم بمحمد من بعده ، حين قال : « جاء الربُّ من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » .

والمراد بساعير : جبال فلسطين حيث ظهر عيسى ، وبفاران مكة (١) .

وفي الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنية (الآية : ١٥) : إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : « قل لبني إسرائيل إني أقيم لهم آخر الزمان نبياً مثلك من بني إخوتهم » .

ولقد جاء بعد موسى عيسى ، وهو من بني إسرائيل ، وكان مقتضى قول الرب لموسى أن يكون ثمّة نبيّ مرتقب بعد عيسى . ولقد كان محمد من ولد إسماعيل ، وإسماعيل أخو إسحاق ، وإسحاق جد بني إسرائيل ، فأخوتهم هم بنو إسماعيل .

تزكّي هذه الآية (١٨) من الإصحاح (٢٥) تكوين : « وسكنوا - أي أبناء إسماعيل - من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو آشور أمام جميع إخوته نزل » .

كما تزكيه الآية (١٢) من الإصحاح (١٦) تكوين : « وأمام إخوته يسكن » .

(١) انظر معجم البلدان لياقوت . صفة جزيرة العرب للهمداني . الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للنهرواني .

ثم جاء على لسان يوحنا حكاية عن المسيح (ص ١٤ ف ١٥)
(ص ١٦ ف ٥) مايشير إلى إتيان (الفارقليط paraclete) . ومعنى
الفارقليط : الكثير الحمد . وهذا المعنى هو ما تعطيه كلمة «أحمد» التي هي
من أسماء النبي .

وجاء في كتاب الرؤيا المنسوب إلى يوحنا الإنجيلي (ص ١١ ف ١١) :
«ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً
صادقاً وبالعدل يحكم» .

ولقد دُعي محمد : الأمين الصادق .

وجاء في رؤيا يوحنا اللاهوتي (ص ١٩ ف ١٥) : «ومن فمه يخرج
سيف ماض لكي يضرب به الأمم ... وهو يدوس معصرة خمر» .

والقرآن الكريم في مضاء السيف ، أذعنت له الأمم ، ومحمد حرم
الخمر ، وما حرمها عيسى ، فلقد روى أنه صبر الماء خمرًا في عرس قانا ،
كما حكى عنه أنه قال عن الخمر : إنها دمه (١) .

(١) انظر كتاب : البشارات التي جاءت عن رسول الله في العهدين ،
لمؤلفه رحمة الله الهندي .

٤- رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

وهكذا كان محمد ، حين دَبَّتْ قدماه على أرض مكة من الجزيرة العربية ، مَحَطَّ الأبصار ، وشُغل الأفكار ، حاطه ربُّه باليُمن وليدًا ، إِيذانًا منه لعباده بما سيُؤَهِّله له ، وصَّانه عن اللهو العابث صبيًّا ليرتفع به عما يَتَدَنَّى فيه غيره ، كي يُمَهِّدَ لإجلاله ، وأجرى الصَّدق على لسانه ، وبَسَطَ بالأمانة يديه ، ومَلَأَ بالرحمة قلبه ، وبالحكمة رأسه ، ليرى الناس فيه ما يَفْقَدون من صفات ، فيلتفتوا حوله اليوم تمهيدًا لالتفافهم حوله في غد .

وحين استوى محمد شابًا ، واستوت باستوائه صفات الكمال كُأها فيه ، رأى الناس أنهم بين يدي عَجَب استعصى على عامتهم تأويله ، ولم يَسْتَعِص على خاصتهم من أُولى الكتاب ، فعرفوا أنه النبي المُرْتَقِب . ومضى محمد في طريقه المرسوم ، يُهَيِّئُهُ الله لتلقَى ماسوف يُوحى به إليه .

فغدا لا يرى في منامه رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْح ، وغدت الخلوة مُحِبَّةً إلى نفسه ، يقضى في غار حراء الليالي ذوات العدد خاليًا لعبادته ، ولا يعود إلى أهله إِلَّا لِكى يتزوَّدَ لمثلها .

وفما كان محمد في غار حراء ، خاليًا يتحنَّث ، تمثَّل له جبريلُ يحمله إليه الوحي من ربِّه ويؤذنه بدعوة قومه إلى الله الواحد الأحد ، وترك عادة الأوثان .

وكان ابتداء الوحي في شهر رمضان وفي السابع عشر منه (١) . يشير إلى الأولى قوله تعالى في سورة البقرة : «شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» (٢)، ويُشير إلى الثانية قوله تعالى في سورة الأنفال : «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَقَّى الْجَمْعَانِ» (٣) .

وكان التقاء الجمعين - أغنى المسلمين والمشرّكين يوم بدر - في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة .

وكان أول منازل عليه من الوحي : «اقرأ باسم ربك الذي خلق» (٤). ولقد تلقاه الرسول مجهوداً ، وانصرف به مشدوهاً ، ووقف في مكانه بعد خروجه من حراء ناظراً في آفاق السماء ، لا يتقدم أمامه ، ولا يرجع إلى الوراء . إلى أن ارتدت إليه نفسه ، وانتهى إلى خديجة وهو يحس هزة المقرور ، فقص عليها القصة .

فقالت : أبشر ، فإنك تطعم الطعام ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة ، لا يصنع الله بك إلا خيراً .

ثم جمعت عليها ثيابها وانطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى بن قصي - وكان نصرانياً قد قرأ الكتب ، وقد مرّ بك أنه كان بين أربعة من القلة الواعية ذات الرأي والفكر - فقصت عليه

(١) يقول البلخي في كتابه البدء والتاريخ (٤ : ١٣) : « وهو الخامس والعشرون من أبان ماه ، التاسع من شباط ، وذلك في سنة عشرين من ملك أبرويز » .

(٢) البقرة : ١٨٥ . (٣) الأنفال : ٤١ .

(٤) العلق : ١

خديجة الخبر ، فقال : لئن كنت صدقتني فقد جاء الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى بن عمران ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه .

ولكن ورقة بن نوفل هلك قبل إظهار النبي ، صلى الله عليه وسلم ،
الدعوة (١) .

* * *

ثم تنامّ الوحي إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أمر الله ، على مايلقى من قومه من الخلاف والأذى .
وآمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاءه من عند الله ، وآزرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت بما جاء منه .

وفتر الوحي فترة (٢) كانت لتلك النفس البشرية المختارة بمثابة الفترة التى سبقت الوحي ، وحُبب فيها إلى الرسول أن يتحنّث ، فلقد هياً هذا التحنّث نفس محمد لهذا التلقّى ، وقارب بها منه ، وإذا هى على الرغم من هذا التقريب وذاك الإعداد تهتّز لجلال ماترى وتسمع ، وإذا هى بهذا قد انتهت من مرحلة لتبدأ في مرحلة ، وإذا المرحلة الجديدة في حاجة إلى زاد ، كما كانت المرحلة الأولى في حاجة إلى زاد ، وإذا هذا الزاد الجديد فترة يخلو فيها محمد إلى نفسه بما شاهد ، يتمثله مرة ومرة لتراح إليه رُوحه ، وليأنس به رُوعه ، حتى إذا ماتلقاه بعدها تلقاه مُتهيئاً له .
وهكذا كانت تلك الفترة خلوة ثانية ، بعد تلك الخلوة الأولى في

(١) البدء والتاريخ (٤ : ١٤٣) .

(٢) كانت فترة الوحي أعواماً ثلاثة .

غارِ حِرَاءَ ، هَيَّأتُ الأولى نفسه لتلقَى الوَحى ، وهَيَّأتُ الثانيةً نفسه
للأنس بالوَحى .

وحرَّكتُ فترةَ الوَحى ألسنةَ أهلِ مَكَّةَ بالقول ، فاستَرْسَلُوا يقولون :
وَدَّعْهُ رَبُّهُ وَقَلَاهُ ، يُرَدِّدُهَا لِسَانُ الضَّلَالِ شِمَاتَةً بِلِسَانِ الْحَقِّ ، وَيُحَاوِلُ
الْعَقْلُ الْغَافِلُ أَنْ يَخْدَعَ بِهَا الْعَقْلَ الْوَاعِي ، لِيَصْرِفَهُ عَنِ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ .
وانضمتْ هذه التى خَلَا بِهَا الْخُصُومُ مِنْ شِمَاتَةٍ ، إِلَى تِلْكَ التى خَلَا بِهَا
الرَّسُولُ مِنْ هَلْفَةٍ ، فَإِذَا هُوَ بَعْدَ هَذِهِ وَتِلْكَ أَحْزَنَ مَا يَكُونُ عَلَى انْقِطَاعِ
الوَحى ، أَشَوْقُ مَا يَكُونُ إِلَى اتِّصَالِهِ .

ومَعَ هَذَا التَّهَيُّؤِ الْكَامِلِ لِهَذِهِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ الْمُخْتَارَةِ ، اتَّصَلَ الْوَحى ،
وَنَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَالضُّحَى . وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ
وَمَا قَلَى . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى .
أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى .
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » (١) ،
يَرُدُّ عَلَى الْمُتَقَوِّلِينَ .

وَيَقَالُ إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سَمِعَ صَوْتَ الْمَلِكِ بَعْدَ
تِلْكَ الْفَتْرَةِ التى اسْتَطَالَهَا حُشَى رَعْبًا ، فَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ ، فَقَالَ : زَمِّلُونى .
فَأَلْقُوا عَلَيْهِ قَطِيفَةً ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ » (٢)
يَأْمُرُهُ أَنْ يَكُونَ رَسُولَ رَبِّهِ إِلَى النَّاسِ ، يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَإِلَى الْحَقِّ ،
وَيَصْرِفُهُمْ عَنِ الْأَوْثَانِ وَعَنِ الْبَاطِلِ .

(١) سورة الضحى : ١ - ١١ .

(٢) المدثر : ١ - ٢ .

٥- بدء الدعوة

وأخذ محمد يدعو إلى ربه ، وإلى هذا الدين الجديد الذى اصطفاه ربه له ، فى بيئته قد عرفت لها إيغالها فى الباطل ، واستكانتها إليه ، وبين قوم أشربوا الضلال فعاندوا عليه ، فاقتضت الحكمة الحكيمة أن تأخذ الدعوة طريقها سراً لا علانية ، وخفية لاجئاً ، تضم إليها الآنس بها ، وتجمع عليها من تفتح قلبه لها .

وكان أقرب الناس إلى الرسول من الرجال أبو بكر ، وكان له صديقاً وإلفاً ، ومن الصبيان على بن أبي طالب ، فى ظله نشأ ، وبين يديه شب ، ومن النساء زوجته خديجة ، وكانت كالتة فى خلواته ، وملاذه فى فزعاته ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، وكان حب رسول الله ، وهبته خديجة له قبل النبوة ، وكان عمره إذ ذاك ثمان سنين ، فأعتقه الرسول وتبناه ، ومن العبيد بلال بن رباح الحبشى ، وكان قريباً من أبي بكر غير بعيد عما يرى .

فكان هؤلاء جميعاً أول من آمنوا بمحمد ، وأول من صدقوه .

ثم أسلم بدعوة أبي بكر : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، جاء بهم أبو بكر إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين استجابوا له ، فأسلموا وصلوا ، وكانت الصلاة قد فرضت ركعتين .

ثم أسلم بعد هؤلاء نفر غيرهم ، ودخل الناس فى الإسلام أرسالاً ، من الرجال والنساء .

وَبَقِيَ الرَّسُولُ بَيْنَ آمَنَ مَعَهُ يَدْعُو النَّاسَ خَفِيَّةً ، وَمَاسَلِمَ الرَّسُولُ ، وَمَاسَلِمَ مِنْ مَعَهُ - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ مُجَاهَرَتِهِمْ بِالدَّعْوَةِ - مِنْ أَذَى كَبِيرٍ ، حَمَلُوهُ رَاضِينَ ، حَتَّى إِذَا مَا أَفْصَحَتِ الدَّعْوَةُ عَنْ نَفْسِهَا شَيْئًا ، وَغَدَتِ حَدِيثَ الْبَيْتَةِ ، لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَتَمَفَّ مُحَمَّدٌ ، وَمِنْ حَوْلِهِ الْقَلِيلُونَ الْمُسْتَضْعَفُونَ ، لِلنَّاسِ جَهْرًا ، يَدْعُونَ ، بَعْدَ أَنْ قَضَوْا نَحْوًا مِنْ أَعْوَامِ ثَلَاثَةِ يُسْرُونَ .

وَكَانَ هَذَا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِإِظْهَارِ الدَّعْوَةِ ، وَهَذَا حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » (١) ، وَحَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » (٢) .

وَكَانَ الصَّدَامُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَمَاجُبِلَتِ النَفُوسُ الْغَافِلَةُ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ غَفْلَتِهَا فِي يُسْرٍ ، لِأَسِيَا إِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْغَفْلَةُ تُظَلِّلُهَا عَقِيدَةً ، وَيَحْمِيهَا تَقْلِيدٌ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْعَقِيدَةُ وَذَلِكَ التَّقْلِيدُ إِرْثَ قُرُونٍ .

وَمَشَتْ قَرِيضٌ إِلَى الرَّسُولِ تُسَاوِمُهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مَا يَشَاءُ مِنْ مُلْكٍ أَوْ سِيَادَةٍ أَوْ مَالٍ ، عَلَى أَنْ يَتْرَكَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، فَعَادُوا بِغَيْرِ مَا كَانُوا يَأْمَلُونَ ، وَلَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهَا عِظَةٌ لَوْ كَانُوا يَتَدَبَّرُونَ .

مِنْ أَجْلِ هَذَا عَنَفَ هَذَا الصَّدَامُ وَقَسَا ، وَذَاقَ دُعَاةَ الْحَقِّ مِنْ غُفِهِ وَمِنْ قَسَوَتِهِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَ مَا ذَاقُوا ابْتِلَاءً لِهَذَا الْحَقِّ ، وَابْتِلَاءً لَهُمْ ،

(١) الْحَجَرُ : ٩٤ .

(٢) الْحَجَرُ : ٨٧ - ٨٩ .

إذ لو كان هو زيفاً ماضِهم إليه على عُسره ، ولو كانوا هم على غير اليقين به مانضموا إليه حاملين ما يُمرّ .

ومضى محمد يشق الطريق بمن تبعه وسط هوجاء عاصفة ، يُدبر للدعوة بتدبير السماء ، وكان حين يصبر على الأذى يُصيبه بأسى للأذى يُصيب أصحابه .

فلقد كان رسولاً ، وكان في عافية بمكانه من رسالته ، لا يخشى أن يُزلزل إيمانه بها ترغيباً أو ترهيباً ، وكان أتباعه على حُسن إيمانهم ، وعظيم صبرهم ، بشراً يجوز عليهم مايجوز على البشر ، مع الوعد والإيعاد ، ولقد وفى أكثرهم لمُعتقده ، فلم يصرفه إيذاء كما لم يحوله إعطاء ، وهلك نفرٌ منهم تحت سوط البلاء ، كما لان نفرٌ منهم فأعطوا بالسنتهم ، وما نظنهم أعطوا بقلوبهم .

فلقد تتبّع مُشركو مكة من يُسلمون بالوان الأذى كلها لايقصِدون ، فأذوهم في أموالهم ، وأذوهم في أهلِيهم ، وأذوهم في أجسادهم . وعزَّ على رسول الله مايلقى أصحابه ، وكانوا كلهم قد تخلّت قبائلهم عن حمايتهم ، فمن كان منهم ذا بأس هابوه ، ومن كان منهم مُستضعفاً حملوا عليه .

وهنا يرى الرسولُ رأياً ، ويراه معه الذين استضعفوا أمراً . لقد رأى الرسول لهؤلاء أن يهاجروا إلى الحبشة ، بعد أن سمع عن النجاشي عدله وإنصافه ، فخرج إلى الحبشة نفر من المسلمين ، على ما في هذه الرحلة من ألم الفراق ، ووعناء الطريق ، وعذاب الغربة .

ولكن قريش لم ترَضَ لمُسلمٍ أن يَقَرَّ آمناً ، وإن كان على أرض غير أرضه ، فحين بلغهم أن المُسلمين أصابوا بالحبشة داراً وقراراً ،

بعثوا في إثرهم رجلين من رجالهم ، وحملوا هدايا للنجاشي وبطارقته ، وكاد الرجلان أن يكيّدا للمسلمين عند النجاشي ، ولكن النجاشي حين استمع لهما واستمع للمسلمين ، ردّ الرجلين خائبين ، وترك المسلمين آمنين .

ويُسلم حمزة بن عبد المطلب ، ويُسلم عمر بن الخطاب ، وكانا رجلين بأس ، ففرّح لإسلامهما المسلمون ، وأسّى لإسلامهما المشركون ، لما رأوه من انتشار الإسلام على الرغم ممّا يفعلون ، وخال المشركون أنّهم لم يبلغوا في الأذى ما يريدون ، فاثتمروا بينهم أن يُمنعوا في الإيذاء إلى حدّ لا يقوى المسلمون له ، فكتبوا فيما بينهم كتاباً تعاقدا فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن يقطعوا ما بينهم وبينهم ، فلا تكون ثمة صلوات من زواج أو بيع أو شراء ، غير أن ذلك لم يُجد شيئا .

ويُفقد الرسول نصيرين عزيزين إلى نفسه ، كريمين عليه ، الواحد بعد الآخر ، قبل أن يُهاجر إلى المدينة ، بنحو من ثلاث سنين ، فلقد فقد عمّه أبا طالب ، وكان نعمّ العون له ، كفّله بعد وفاة جدّه عبد المطلب ، ووقف إلى جانبه منذ بُعث ، يُناصره ويرد عنه كيّد المشركين ، وكان المشركون يهابون أبا طالب فلم يُقدّموا على كثير ممّا كانوا يُريدون .

ولا ننسى ما كان من أبي طالب لوفد قريش حين جاء يطلب من أبي طالب أن يُسلم إليهم محمداً ويأخذ مكانه عمارة بن الوليد ، وكان أنهد فتى في قريش وأجمله ، وإذا أبو طالب يقف لهم ناهراً ويقول :

تعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ، هذا ما لا يكون أبداً (١) .

ثم لاننسى لأبي طالب وقفته مع محمد حين طلب إليه وقد قريش أن يكفه عن الدعوة وعن سب آلهتهم ، وما ظنه محمد بعمه من خذلان له وقعود عن نصرته ، حين قال له : أبق عليّ وعلى نفسك ، فإذا محمد يقول لعمه : والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ماتركته ، ثم يستعبر ويقول مولياً ، فإذا عمه أبو طالب يناديه ويقول : أقبل يا ابن أخي ، فلما أقبل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال أبو طالب : اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً (٢) .

وبعد أيامٍ ثلاثة فقد زوجته خديجة ، بعد زواج دام أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر .

ولقد علمت موقف خديجة من الرسول ، قبل أن يُبعث وبعد أن بُعث ، كانت أول مُسلمة ، وأول مناصرة ، رعت الرسول ، وقامت في عونه أيام لا عون .

وكما حزن المُشركون لإسلام حمزة وعُمر ، فرحوا لموت أبي طالب وخديجة ، واشتطوا يُمعنون في الأذى ، غير أن الرسول ما أبه لأذى المُشركين ، ومأقعد عن لقاء الناس في الأسواق يدعو لِعَقِيدته .

(١) البدء والتاريخ (٤ : ١٤٨) ، والسيرة (١ : ٢٨٥) .

(٢) المرجعان السابقان .

وكان الإسراء الذي تمَّ لَيْلاً ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ،
ثم المعراج إلى السماء .

وفي تلك الليلة فرضت الصلاة كاملة على المسلمين .

وكان ذلك قبل الهجرة بسنة .

ولسنا نحب أن نخوض فيما خاض فيه المُجتهدون من قبلُ حول
الإسراء والمعراج ، أكان بالجسد أم أكان بالروح ، واختلافهم دليل
على أنه ليس ثمة قولٌ قاطع ، وعندى أن الخير في مثل هذه تَقَبُّلُ
الصورة على إجمالها ، فنحن مُلزمون بالتصديق بالإسراء والمعراج ،
وأنهما وقعا حقاً ، ولكننا غيرُ مُلزمين أن نُؤمن بالصورة التي وقعا بها ،
مأدماً لا نجد أثراً يُملئ إملاءً صريحاً ، وثمة حقائق دينية منها هذه ،
يجب أن نقف عند مدلولها ولا نناقش صورها ، وأى شيء يعنى المؤمن
عن الرسول في هذه إلا أن يُصدَّق بأنَّه أُسرى به ، وأنه مع هذا الإسراء
والمعراج فُرضت الصلاة كاملة ، وأُيِّن نفوسنا وماتملك من نفوس الرُّسل
وماتملك ، وأُيِّن بصائرنا وماتحوز من بصائر الرسل وماتحوز ، ثم أُيِّن
مكان المغمور في حَمأة المادة من مكان السابح في شفافية المعنويات .

لقد أُسرى بالرسول وعُرج به ، ما في ذلك شك ، ولقد فُرضت الصلاة
في تلك الليلة ، ما في ذلك شك ، بهذا حدثنا الرسول ونطق القرآن .
ولو شاء تفصيلاً لزادا ، ولكنهما أعطيانا مانعِي ، ومايعنيني ، وحجبا عنا
مابعد ذلك .

ولعلَّ نظرة المُشركين للإسراء والمعراج يُناقشون صورتها التي وقعت
بها هي التي حَفَزت المسلمين بعدُ على أن يُكذِّبوا أنفسهم في هذا الخلاف .

وليست صورة الوحى تبعد كثيراً عن صورة الإسراء والمعراج ، ومن آمن بالأولى يؤمن بالثانية ، فكما اتصل محمد بربه في تلك اتصل محمد بربه في هذه ، وكما تلقى محمد عن ربه في الأولى تلقى محمد عن ربه في الثانية .

يروى ابن هشام في سيرته أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين أصبح (١) غدا على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البين (٢) ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيزهد ذلك محمد في ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة .

ثم يقول ابن هشام : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة .

فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه .

فقالوا : بلى ، فهو ذا في المسجد يحدث به الناس .

فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أعجب مما تعجبون منه .

ثم أقبل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

(١) فلقد كان الإسراء ليلاً .

(٢) الإمر ، بكسر الهمزة : العجب المنكر .

فقال : يانبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال : يانبي الله ، فصِّفه لي ، فإنني قد جئته .

فجعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئاً ، قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله .

حتى إذا انتهى ، قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لأبي بكر : وأنت يا أبا بكر : الصديق .

فيومئذ سَمَّاه : الصديق (١) .

ويروى عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : كانت رؤيا من الله تعالى صادقة (٢) . ويروى عن الحسن قوله : كانت رؤيا ، ويحتج بقوله تعالى : «وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس» (٣) .

* * *

أما عن المعراج فرفقه صلى الله عليه وسلم إلى السماء ، فإن ابن إسحاق يروى عن لايتهم ، عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج .

ثم ساق ماوقع (٤) .

(١) السيرة (٢ : ٩٣ - ٤٠) ٥

(٢) السيرة (٢ : ٤١) .

(٣) الإسراء : ٦٠ .

(٤) السيرة (٢ : ٤٤) .

وهذا يعنى أن المعراج كان بعد الفراغ من الإسراء .

ولكننا نرى البلخى فى كتابه البدء والتاريخ (١) يقول ، نقلًا
عن الواقدى : إن المعراج كان قبل ذلك - أى قبل الإسراء - بثمانية
عشر شهرًا .

وبعد أن يروى البلخى ما كان فى المعراج نقلًا عن الواقدى ، يقول :
وأما ابن إسحاق ... ثم يذكر ماسقناه قبل عن ابن إسحاق ، من أن
المعراج كان بعد الفراغ مما كان فى بيت المقدس .

(١) البدء والتاريخ (٤ : ١٥٩) .

٦ - الأنصار

وحين ازداد المُشركون إيذاءً ازداد الرسولُ تعرُّضًا للقبائل ،
يَعرض عليها مَآئِزٌ عليه من السماء ، وَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ ، قَرِيبًا مِنْ
مَكَّةَ ، لَقِيَ نَفَرًا مِنَ الْخَزْرَجِ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، فَأَجَابُوهُ وَأَسْلَمُوا ،
وَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ بِالْإِسْلَامِ ، يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ .

حَتَّى إِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ لَقِيَ الرَّسُولُ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا آخَرِينَ ،
فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ .

وَفِي اللَّقِيَةِ الثَّانِيَةِ كَانَ الْإِتِّفَاقُ بَيْنَ الْأَنْصَارِ وَالرَّسُولِ عَلَى خُرُوجِ
الرَّسُولِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَاسْتَوْتَقَ الرَّسُولُ ، وَاسْتَوْتَقَ لَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ ،
وَكَانَ حَاضِرًا هَذَا الْجَمَاعَ ، وَكَانَتِ الْهَجْرَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ . خَرَجَ إِلَيْهَا
الْمُسْلِمُونَ ، وَأَقَامَ الرَّسُولُ بِمَكَّةَ يُدَبِّرُ لَأَمْرِ خُرُوجِهِ .

وَكَانَتْ قَرِيشٌ قَدْ دَبَّرَتْ لِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَأَخَذُوا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتًى شَابًا جَلْدًا ، نَسِيبًا شَرِيفًا ، وَمَعَ كُلِّ فَتًى سَيْفُهُ ،
لِيَعْرِضُوا لِلرَّسُولِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَضْرِبُوهُ ضَرْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ ، كَيْ
يَتَفَرَّقَ دَمُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَبَائِلِ جَمِيعًا ، فَلَاتَقْدِرُ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ
عَلَى حَرْبِ قَوْمِهِمْ جَمِيعًا .

وَاجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ عَلَى بَابِ الرَّسُولِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَرْصُدُونَهُ ،
فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مَكَانَهُمْ ، أَمَرَ عَلِيًّا بِأَنْ يَنَامَ عَلَى
فَرَاشِهِ ، وَيَتَعَطَّى بِبِرْدِهِ .

وخرج عليهم الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، منصرفاً إلى بيت أبي بكر ، وقد أغشاهم الله فهم لا يبصرون .

وكانوا كلما جعلوا يتطلعون ، فَيَرَوْنَ عليّاً على فراش رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، متسجياً ببردته ، يخالون أن محمداً لا يزال نائماً .

ولم يزلوا كذلك حتى قام عليٌّ ، رضى الله عنه ، عن الفراش ، فعلموا حقيقة ما كان .

وعلى الرغم من حَيْطَةِ قُرَيْشٍ خرج الرسولُ ومعه أبو بكر ، وَرَكِبَا إلى المدينة ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي إِثْرِهِمَا تَطْلُبُهُمَا . فَفَوَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا مَا يَطْلُبُونَ .

وكان خروج الرسول من مكة يوم الخميس في اليوم الأول من ربيع الأول ، وكان بلوغه المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت منه ، وكان ذلك ظُهر يوم اثنين ، وكان ذلك بعد أن بعثه الله ، عزَّ وجلَّ ، بثلاث عشرة سنة ، وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وخمسين سنة .

ولقد عَلِمَ المسلمون أول ما عَلِمُوا ، أَنَّ هَذَا الْبَلَاءُ زَادَ الْمُسْلِمَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَصَفَحْتَهُ يَوْمَ الْمِيعَادِ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَيَانُ ، وَأَنَّ عَلَيْهِمُ التَّمَكِينَ لِهَذَا الْبَيَانِ ، وَنَصَرَ اللَّهُ صِنُوهُ جِهَادَ الْعَبْدِ وَكِفَاحَهُ وَصَبْرَهُ ، عَلَى هَذَا رِسَالَاتِ السَّمَاءِ ، وَعَلَى هَذَا رُسُلُ السَّمَاءِ إِلَى الْعِبَادِ ، يَهْبِطُ الْهُدَى حِينَ تَشِيْعُ الظُّلْمَةُ ، وَيَتَلَقَّفُ الْهُدَى رَسُولٌ مُخْتَارٌ ، يَصْطَفِيهِ اللَّهُ صَادِقًا جَلَدًا صَبُورًا ، فَإِذَا النَّاسُ مَعَهُ عَلَى الطَّرِيقِ ، لَهُمْ مِثْلُ صِدْقِهِ وَجَلَدِهِ وَصَبْرِهِ ، هَمَّهُمْ مِثْلُ هَمِّهِ ، نُصْرَاهُ لِلْحَقِّ ، يَنْصُرُونَهُ بِصِدْقِهِمْ وَجَلَدِهِمْ

وصبرهم ، لا يحرصون على الحياة ، ولا يُغريهم متاعها ، وإذا هم حين يؤيدون رسالة السماء ، قد أيدتهم رسالة السماء ، وإذا الدنيا معهم على هذا الحق ، وإذا هم سادة الدنيا بهذا الحق .

على هذا عرف المسلمون محمداً ، وبهذا قدّم محمدٌ نفسه للمسلمين ، لم يطمعوا في أن تكشف السماء عنهم ضراً لم يُشمروا هم لكشفه ، ولا في أن تُزيح عنهم السماء بلائاً لم يتهيئوا هم لإزاحته ، كما لم يجعلوا كلمة التوحيد وحدها سلاحهم على أعدائهم ، وعُدَّتْهم التي بها يَقْوُونَ ، بل جعلوا هذه الكلمة هي اللبنة الأولى في صرح إيمانهم ، وانضم بها بعضهم إلى بعض ، يتناصحون ، والرسول من بينهم يُملئ عليهم ويُشير .

على هذا عاهد المسلمون الله ، وعلى هذا عاهد المسلمون الرسول ، عاهدوا الله على أن يُناصروا رسوله ، وعاهدوا الرسول على أن يناصروا رسالته ، ثم عاهدوا أنفسهم على البذل للتمكين للرسالة ، لا يسألون الله نصراً قبل أن يسألوا أنفسهم بذلاً .

وعلى هذا عاش منهم في مكة من أنس في نفسه قوة على احتمال الأذى ، ولم يخش أن يُفتن في دينه ، وهاجر منهم إلى الحبشة من لم يَقْوَ على احتمال الأذى ، وخاف أن يُفتن في دينه ، حتى إذا كانت الهجرة إلى المدينة ، لم ينظر المهاجرون إلى وطنٍ عزيز عليهم ، وأهل أقرباء ، إلى نفوسهم ، ومالٍ هو قِوَامُ حياتهم ، وإنما نظروا إلى عقيدة هي لهم الحياة كلها ، وطناً وأهلاً ومالاً .

وسرعان ما لحق بهم الرسول إلى المدينة ، ليبدأ بالمهاجرين معه من مكة ، وبالأَنْصار أهل المدينة ، مرحلة جديدة من مراحل الدعوة ،

كانت معها حروب ، وكانت معها تَضحيات ، وكان نصر الله صِنُو
نَصْر المسلمين لرسوله ولرسالته .

وكتب الله بجهد المجاهدين لهذه الدعوة أن تستقر ، وكتب لها
أن تدخل بهم مكة فاتحين ، ليمحوا كلمة الإثم ، ويردوا أهلها إلى
الهُدَى .

٧ - غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين سَبْعًا وعشرين غزوة ،
كما بَعَث بُعوثًا ، وأرسل سَرَايَا ، بلغت جميعها ثمانيًا وثلاثين .

وكانت هذه البُعوث والسَرَايَا والغَزَوَات كُلُّهَا دِفَاعًا عن النفس ،
وذيَادًا عن الحق ، فلقد لَبِثَ الرسولُ بالمسلمين ، منذ بدأت الدَّعْوَةُ ،
ثلاثَ عشرةَ سنةً داعيًا إلى الله بالمعروف ، يُعَرِّضُ به كما يعرِّضُ
بالمُسلمين ، فلا يَعتَنيه ولا يَعتَنيهم هذا التَّعريضُ ، ويؤدِّي المُسلمون بين
يديه ، فيدعوهم إلى الصَّبْرِ ولا يَهَيِّجُهُم إلى الشَّرِّ ، وكان ذلك يُظَنُّ عن
ضَعْفٍ ، حين كان المُسلمون قَلَّةً ، فما بالك بهم بعد أن أصبحوا كَثْرَةً ،
وكم من أَيَّامَ آبَ فيها الصَّحَابَةُ إلى الرسول وهم مابين مَشْجُوجٍ ومَضْرُوبٍ ،
يَسْتَأْذِنُونَهُ في أن يَرُدُّوا عن أَنفُسِهِمْ ، أو يَشَارُوا من ضَارِبِيهِمْ ، فما كان
جَوَابُ الرَّسُولِ لَهُمْ إِلَّا قَوْلُهُ : اضْبُرُوا ، فَإِنِّي لَمْ أُمِرْ بِقِتَالِهِمْ .

وكانت حِكْمَةُ السَّمَاءِ في هذا الصَّبْرِ أن يَخْرُجَ الرسولُ بِالْأُمَّةِ
العَرَبِيَّةِ من بعده ، على وُدٍّ لَمْ يُعَكِّرْهُ عِدَاءٌ أو عُذْوَانٌ ، وكانت حِكْمَتُهَا
في الإِرْخَاءِ فيه إلى أن بَاغَ ثَلَاثَةُ عَشَرَ عَامًا ، أن تُعْذَرَ إلى من لم يُسَلِّمُوا ،
ولم يَكُونُوا غَيْرَ أَهْلٍ وَإِخْوَانٍ ، الإِعْذَارَ كُلَّهُ ، فلا تَذَرُ في أَيْدِيهِمْ سَبَبًا
من أسباب اللُّؤْمِ ، ثم كانت حِكْمَةُ السَّمَاءِ في هذا الصَّبْرِ الطَوِيلِ أن
تَخْلُقَ في المُسلمين قُوَّةَ الاحْتِمَالِ والجَلْدِ والأَنَاةِ والتَّرَفُّقِ ، إلى غير ذلك
من صفات تُعْزِزُ النُّفُوسَ المُقْبِلَةَ على مَهَامَ جَسِيمَةٍ ، وهل كانت رسالةُ
الاسلام إِلَّا رسالةُ جَسِيمَةٍ .

حتى إذا ما أعذر المسلمون إلى إخوانهم ، وأبلغوا في الإعذار ، وصبروا وأمعنوا في الصبر ، لم يكن بُدُّ من أن تتولَّى حِكْمَةُ السَّاءِ هؤلاء الصابرين بتدبير ، يحفظ عليهم صَبْرَهُم من أن يَنفَدَ ، ويحفظ عليهم وجودهم من أن يُسْتَذَلَّ ، وترعى لهم كيانتهم من أن يُهَان ، وما جاءت الدَّعوة الجديدة إلا لِتَحْمِيَ هؤلاء وجودهم وكيانتهم ، لهذا أذن للرَّسول في أن يَدفع عن نفسه وعن المسلمين .

ونحن إذا تَتَبَعْنَا الغزوات غزوةً غزوةً ، والسَّرايا سريةً سريةً ، والبُعوث بعثًا بعثًا ، لانجدها خَرَجَتْ جميعُها إلا لِتَدْفَعْ غَزَوًا ، أو لِتُرْهِبَ حتى تَمْنَعَ غَزَوًا .

فلقد خرج حمزة على أول بعث بعد سبعة أشهر من الهجرة ، ليَلْقَى عِيراً لقريش فيها أبو جهل ، قادمة من الشام ، وكان هذا البعث الأول نذيراً لقريش ، علَّه يَكْفِيهَا عن غِيَّهَا ، لم يَقْصِدِ فيه المسلمون إلا إلى هذا ، فحين دَخَلَ بين الفريقين رجلٌ صُلِحَ كَفَّ المسلمون أيديهم ، ولم يدخلوا في قتال .

وبعد شهر من هذا البعث خَرَجَتْ سريةٌ لتَلْقَى أبا سفيان في نفر من أصحابه ، وكانت بين الفريقين مُناوشة ، أُصِيبَ فيها سعدُ بن أبي وقاص ، بِسَهْمٍ من سهام المُشركين ، فكان أولَ سَهْمٍ أُصِيبَ به مُسلم في الإسلام .

ثم كانت سرية سعد بن أبي وقاص ، التي خرجتْ تَعْتَرِضُ عِيراً لقريش ، فمَرَّتْ العير ولم تَقْعْ عليها السرية .

وعلى رأس اثني عشر شهراً من الهجرة خرج رسولُ الله وَجَمْعٌ من

المسلمين يُريدون ودّان - الأبواء - حيث عير لقريش ، وحيث بنو ضَمْرَة الذين كانوا يُعينون عليه ، ورجع رسول الله بمن معه من هذه الغزوة ، بعد أن صالحته بنو ضَمْرَة على ألا تُعين عليه . ولقد فاتته عير قريش في هذه الغزوة ، كما فاتته في غزوة بعدها ، هي غزوة بواط (١) ، وكانت بعد شهر من غزوة ودّان .

وبعد غزوة بواط كانت غزوة بدر الأولى ، التي خرج فيها رسول الله ليُدرِك كُرْز بن جابر الفهري ، وكان قد أغار على المدينة واستاق سرْحاً لها ، غير أن كُرْزاً فات جيش المسلمين فلم يُدرِكوه .

وعلى رأس ستة عشر شهراً من الهجرة خرج حمزة بن عبد المطلب في نفر من المسلمين ، يُريدون عيراً لقريش ، قافلة من الشام ، وحين أدرَكوا العُشيرة (٢) ، وجدوا أن العير فاتتهم .

وبعد شهرٍ خرجت سرية في اثني عشر رجلاً تبغى نخلة ، وهو مكان بين مكة والطائف ، لترصد قريش وتعرف ما عندها ، غير أن تلك السرية التقت بعير لقريش ، فكان بينهما عُدوان ، تورط فيه المسلمون وعادوا بغنائم وأسرى ، وكانوا في رجب ، وهو شهر حرام ، فعاتبهم الرسول عليها حين عادوا إليه .

ثم كانت غزوة بدر الثانية ، في السابع عشر من رمضان ، في السنة الثانية من الهجرة ، وكانت بسبب تلك العير التي فاتت المسلمين في

(١) بواط : من جبال جهينة قرب ينبع (معجم البلدان : ١ : ٧٥٠) .

(٢) العشيرة : من ناحية ينبع ، بين مكة والمدينة (معجم البلدان : ٣ :

العشيرة ، وفيها كانت الحرب بين المسلمين والمشركين ، وفيها انتصف المسلمون من المشركين ، على الرغم من قلة عدد المسلمين ، وكثرة عدد المشركين .

وبعد ليالٍ سبع من مرجع المسلمين من بدر ، خرج الرسول يريد بنى سليم . وكانوا يعينون على المسلمين ، وحين أحس بنو سليم بالمسلمين يطلبونهم ولوا هاربين .

وهكذا بدأت رهبة المسلمين تدب في قلوب المشركين ، وبعد أن كانوا قلةً مستضعفين غداوا كثرة مرهوبين .

وهنا أحب أن أقف بك وقفة قصيرة ، فالحديث عن هذه الغزوات والسرايا والبُعوث ذو شقين ، ينتهى شقه الأول إلى ما قبل بدر الثانية ، ثم هو منذ بدر الثانية ذو شق آخر .

ولقد مرّ بك في هذا الشق الأول عَرَضٌ لِكُلِّ ما كان فيه من هذه السرايا والبُعوث والغزوات ، ولقد رأيت فيها المسلمين قد شَمَرُوا لِاثبات وجودهم ، وليَظْهروا في مَظْهَرِ القُوَى ، بعد أن عاشوا في مَظْهَرِ المُستضعف ، وأن ذلك كان مُنذ أن استقرت أقدامهم في المدينة بقليل ، وأنهم لم يَلْبِثُوا غير سبعة أشهر في المدينة ، كان بعدها خروجهم لهذا الإعلان عن قوتهم .

والدَّعَاوَات عَجَلَةٌ بِقَدَرِ ما هي مُسْتَأْنِيَةٌ ، تَسْتَأْنِي وتُطِيل الاستثناء ما وَجَدَتْ في هذا الاستثناء الخير ، وتعجل فتُسْرِع إلى العجلة ما وَجَدَتْ في هذه العجلة الخير . ولقد تلبّث الرسول بمن معه من المسلمين ثلاثة

عشرَ عامًا - كما قلت لك - لا يُحب أن يخرج بالمسلمين عن الصبر والاحتمال ، لأسبابٍ بينها لك ، حتى إذا ما نفذت حِكْمَةُ الصبر كانت حِكْمَةُ الخروج عن الصبر .

ولقد خرج المسلمون من المدينة في تلك السرايا والبُعوث والغزوات ليُثبتوا للملأ من حولهم أنهم خرجوا عن صبرهم ، وليُثبتوا للملأ من حولهم أنهم قُوَّة تملك أن تُرهب .

ولاغرو أن نرى هذا الشقَّ الأول كُلَّهُ يَمْضِي في التعرُّض لِعيرٍ بعد عيرٍ ، فلقد كان هذا أسلوب ذلك العصر في الإرهاب ، وما أراد المسلمون غير أن يُهابوا ويُرهبوا ، وأن يُبادلوا جيرانهم هذا الأسلوب الإرهابي .

ولم يكن فيه عليهم غَضاضة ، فلقد رأيتهم في كُلِّ ما فعلوا لم يقصدوا إلا الإعلان عن خروجهم ، ولقد فاتهم العير في الكثير من خرجاتهم ، وحين التقوا بخصومهم مرةً كان هذا الصلح الذي تمَّ بين حمزة وأبي جهل في البعث الأول ، ثم لقد رأيت كيف عاتب الرسول أصحابه على ما كان منهم في نَخْلَةٍ .

إذا لم يكن صحيحًا ما اتَّهم به المُعرضون محمدًا وأصحابه عن هذا الشقَّ الأول من الحروب بأنَّها كانت للسلب ، فلقد رأيت معي كم سلب المسلمون فيها ، وكم عيرًا لقوا .

والصحيح ، كما ثبت لك ، أن هذه الحروب - إن صحَّ أنها كانت حروبًا - لم يقصد فيها المسلمون إلا إلى الذي حَدَّثتك عنه ، وأنها لم تكن عير وثبة بعد صبر طويل ، وكانت وثبة تحكي وثبات العصر

شئ وتخالفه في شئ ، تحكيه في مظهرها الإرهابي ، وتخالفه في مظهرها السليبي .

ومنذ أن دخل المسلمون مع المشركين في غزوة بدر الثانية ، بدأ الشق الثاني من الحروب . فلقد أخذت الحرب في هذا الشق الثاني مظهرها الحق ، فنشبت تُمليها الخصومة القائمة بين عقيدة وعقيدة ، وكان الخروج إليها خروجاً من أجل إثبات عقيدة ومَجْوَ أخرى ، واختفت تلك الأسباب الأولى التي أثارَت حُرُوبَ الشق الأول ، اختفى مظهر الإرهاب وما إليه ، من تتبع غير أو التعرض لها ، وبدأ مظهر التطاحن من أجل العقيدة ، ومن أجل نشر العقيدة ، وعلى هذا توالَت غزوات الشق الثاني .

فكانت غزوة بني سليم ، التي حدثت عنها ، ثم غزوة بني قَيْنُقَاع يهود المدينة ، وكانوا على غير صفاء مع المسلمين ، وبعد هذه الغزوة كانت غزوة السويق ، التي خرج فيها أبو سفيان ليُثَارَ ليوم بدر .

وحين رجع الرسول من غزوة السويق ، خرج يغزو غطفان ، وكان قد بلغه أنهم أعدوا العدة لغزوه .

ثم كانت غزوة أحد (١) ، التي خرج فيها المشركون ليُثَارُوا من المسلمين بيوم بدر ، وفيها خالف المسلمون أمر الرسول وتديبره ، فكانت الغلبة للمشركين .

(١) أحد : جبل بينه وبين المدينة قرابة ميل ، في شمالها . (معجم البلدان

وَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ، عَقَبَ قَفُولَهُ مِنْ «أَحَد» ، أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَهْمُونَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، بَعْدَ أَنْ كَسَبُوا شَيْئًا مِنَ النَّصْرِ فِي «أَحَد» ، فَخَرَجَ الرَّسُولُ بِأَصْحَابِهِ ، الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي «أَحَد» وَحَدَّاهُمْ ، إِلَى حِمْرَاءِ الْأَسَدِ ، عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ فِيهِ عَدُوُّهُ .

وَفِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ كَانَتْ غَزْوَةُ بَنِي النَّضِيرِ ، مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانُوا قَدْ كَادُوا لِلرَّسُولِ وَهَمُوا بِقَتْلِهِ .

وَبَعْدَ هَذِهِ الْغَزْوَةِ بَنَحَوْ مِنْ شَهْرَيْنِ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ (١) ، لِيَغْزُوا قَوْمًا مِنْ غَطَفَانَ ، كَانُوا قَدْ بَلَغَهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ جَمَعُوا جُمُوعًا لِمُحَارَبَتِهِ .

ثُمَّ كَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرِ الْأَخِيرَةِ ، وَقَدْ كَانَ أَبُو سَفْيَانَ حَدَّدَ مَوَاعِدَهَا بَعْدَ بَدْرِ الثَّانِيَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ بَأْسَ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يَنْهَضْ إِلَيْهِمْ .

وَمِثْلُ مَا خَرَجَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ يَوْمَ ذَاتِ الرِّقَاعِ ، كَانَ خُرُوجُهُ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ - مَدِينَةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ دِمَشْقَ خَمْسَ لَيَالٍ ، وَتَبَعَهُ عَنِ الْمَدِينَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً - فَلَقَدْ بَلَغَ الرَّسُولَ أَنَّ قَوْمًا يَعْسِفُونَ ، وَأَنَّهُمْ عَلَى أَنْ يَمْتَدُّوا بِعَسْفِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ ، فَإِذَا هُمْ يَفِرُّونَ ، فَعَادَ الْمُسْلِمُونَ وَقَدْ غَنِمُوا شَيْئًا .

وَمِثْلُ هَذَا أَيْضًا كَانَ خُرُوجُ الرَّسُولِ إِلَى الْمُرَيْسِيعِ (٢) .

وَاتَّفَقَتْ كَلِمَةُ الْيَهُودِ مَعَ كَلِمَةِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى أَنْ يَغْزُوا مُحَمَّدًا فِي

(١) ذَاتِ الرِّقَاعِ : مَوْضِعٌ بِنَجْدٍ (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ : ٢ : ٧٩٨) .

(٢) الْمُرَيْسِيعِ : مَاءٌ فِي نَاحِيَةِ قَلِيدٍ (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ . ٤ : ٥٢٥) .

(تَارِيخُ الْقُرْآنِ)

المدينة مُجتمعين ، فكانت غزوة الخندق ، التي حفر فيها الرسولُ خندقاً حول المدينة ، يحميها من هذا الهجوم ، ولقد كتب فيها النصر للمسلمين ، وابتدأ المشركون عن المدينة مذحورين .

ولم يكن بُدٌّ من أن يأخذ المسلمون اليهود لمناصرتهم لقريش في غزوة الخندق ، فما كاد المشركون يرتدُّون عن المدينة حتى خرج المسلمون لغزو بني قريظة ، وإملاء شروطهم عليهم .

وكانت بعد هذه غزوات وسرايا ، كان الخروج إليها لمثل تلك الأسباب التي مرّت بك ، إلى أن كان أمر الحديبية (١) حين خرج رسولُ الله يريد مكة ، بعد ست سنوات من الهجرة ، وحيث كانت المصالحة بينه وبين قريش ، على أن يرجع عنهم عامهم هذا .

وفي السنة السابعة من الهجرة كانت غزوة خيبر (٢) ، حيث اجتمع اليهود على حرب المسلمين ، ثم فتحها .

وبين غزوة خيبر سنة سبع ، وفتح مكة سنة ثمان ، كانت سرايا وغزوات ، لردِّ عدوان أو كبتِ خصومة .

وبفتحت مكة عاد الإسلام إلى مواطن الرسالة ومكان البيت ، وقضى على كلمة الشرك القضاء الأخير ، بعد أن اقتحم عليه معقله .

ولقد خاض المسلمون بعد فتح مكة حربين ، حملوا عليهما ،

(١) الحديبية : موضع بينه وبين مكة مرحلة ، وبينه وبين المدينة تسع مراحل (معجم البلدان : ٢ : ٢٢٢) .

(٢) خيبر : موضع على ثمانية برد من المدينة (معجم البلدان : ٤ :

كانت أولى هاتين الحربين غزوة حُنين (١) ، التي تهيأت فيها هَوازن لحرب الرسول ، وكانت بينهم وبين المسلمين حرب طاحنة ، كُتب فيها النصر أخيراً للمسلمين .

وتَبعت هذه الحرب حربٌ ثانية ، كانت امتداداً للحرب الأولى ، وهي غزوة الطائف .

وكانت بعد غزوة الطائف سرايا من نوع ماسبق من سرايا ، إلى أن كانت غزوة تبوك (٢) سنة تسع ، وكانت آخر غزواته ، صلى الله عليه وسلم ، وكان قد خرج فيها للقاء الروم ، ولم يكن لقاء .

وإنَّ نظرة إلى جيش المُجاهدين المسلمين ، عند أول بعث خرجوا له ، وعند آخر جيش تَعَبُوا له ، ندرك كيف بدأ المسلمون وكيف انتهوا ، فلقد كان بعث حمزة ثلاثين راكباً ، وكان جيش تبوك ثلاثين ألفاً ، وكانت الخيل فيه عشرة آلاف .

وهكذا خلقت العقيدة من القلة كثرة ، ومن الضعف قوة ، وبعد أن كان المؤمنون قلةً مستضعفين ، غَدُوا كثرةً مرهوبين . وكان نصر الله في ظل راياتهم أنَّى تَخْفَق ، ومع خطوات جيوشهم أنَّى تَسِير .

(١) حنين : موضع قريب من مكة ، بينه وبينها ثلاث ليال (معجم البلدان : ٢ : ٣٥١) .

(٢) تبوك : موضع بين وادي القرى والشام (معجم البلدان : ١ : ٨) .

٨ - عرض لحياة الرسول ﷺ

وفي ذى الحِجَّة من السنة العاشرة للهجرة ، حَجَّ الرسولُ بالمُسلمين حِجَّةَ الوداع ، وفيها خَطب النَّاسَ خُطْبَتَهُ الْبَلَقَاءَ ، الَّتِي رَسَمَ لِلنَّاسِ فِيهَا الْحُدُودَ ، وَذَكَرَهُمْ بِمَعَالِمِ الدِّينِ ، وَفِيهَا وَدَّعَ النَّاسَ ، وَكَأَنَّهُ يُحْسِنُ أَنَّهُ مُلَاقٍ رَبَّهُ .

وفي أواخر صَفَر من السنة الحادية عشرة للهجرة ، أَخَذَ الْمَرَضَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَبِثَ مَرِيضًا أَيَّامًا ، يُقَدَّرُهَا بَعْضُهُمْ بِسَبْعَةِ أَيَّامٍ ، وَيُقَدَّرُهَا بَعْضُهُمْ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ يَوْمًا .

وفي يوم الاثنين ، الثاني عشر من ربيع الأول ، من تلك السَّنة - أَعْنَى السَّنةَ الحادية عشرة للهجرة - قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ ثَلَاثِ وَسِتِينَ سَنَةً قَمَرِيَّةً .

وكانت سِنُو بَعَثَتِهِ ، مُنْذُ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَنْ قَبَضَهُ إِلَيْهِ ، نَحْوًا مِنْ ثَلَاثَةٍ وَعَشْرِينَ عَامًا ، قَضَى أَكْثَرَهَا ، وَمَا يَزِيدُ عَلَى نِصْفِهَا فِي مَكَّةَ ، تُسَانِدُهُ زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ ، إِلَى أَنْ مَاتَتْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، بِنَحْوِ مِنْ أَعْوَامِ ثَلَاثَةِ .

وفي المدينة عاش الرسولُ نَحْوًا مِنْ أَحَدِ عَشَرَ عَامًا ، وَقَعَتْ فِيهَا الْغَزَاوَاتُ كُلُّهَا ، وَالسَّرَايَا وَالْبُعُوثُ كُلُّهَا ، وَعَلَى الصَّحِيحِ فِي تِسْعِ مِنْهَا ، لِأَنَّ أَوَّلَ بَعَثٍ كَانَ فِي السَّنةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ . وَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ مَجْمُوعَ تِلْكَ الْحُرُوبِ كَانَ نَحْوًا مِنْ خَمْسِ وَسِتِينَ ، عَلِمْنَا أَنَّ نَصِيبَ كُلِّ عَامٍ مِنْ تِلْكَ الْأَعْوَامِ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوبِ بَلَغَ الثَّمَانِي ، أَيْ إِنَّهُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ لَهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ تَدْبِيرُ جَيْشٍ ، وَلِقَاءُ عَدُوٍّ ، هَذَا إِلَى تِلْكَ التَّشْرِيعَاتِ

الكثيرة التي وَضَعَهَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، والحدود التي بَيَّنَّهَا بِوَحْيٍ مِنْ رَبِّهِ ،
ثم مابين هذا وذاك من لقاء وفود ، ولقاء أفراد ، وكُتِبَ إِلَى الْمُلُوكِ
وَالْأُمَرَاءِ ، وَقِيَامٍ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا ، وما كان أكثرها .

تُرَى فِي ظِلِّ هَذَا كُلِّهِ كَيْفَ كَانَ الرَّسُولُ يَفْرُغُ لَشَأْنِهِ ، وَكَمْ مِنْ
سَاعَاتٍ يَوْمِهِ كَانَتْ لَهُ خَالِصَةً ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ ، إِلَى هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ
لَهُ مِنْ وَاجِبَاتٍ ، وَاجِبَاتٍ أُخْرَى ، كَانَتْ لِرَبِّهِ يَخْتَصِمُهَا بِالْعِبَادَةِ .

هَذِهِ هِيَ حَيَاةُ أَعْوَامِ تِسْعَةٍ ، رَأَيْتُ كَيْفَ مَلَأَتْ الْوَاجِبَاتُ الثَّقَالَ
صَفْحَاتِهَا ، وَرَأَيْتُ كَيْفَ شُغِلَ فِيهَا الرَّسُولُ بِتَدْبِيرِ شُؤْنِ الْعَقِيدَةِ
شُغْلًا مُتَّصِلًا .

وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنَّ هَذِهِ الْأَعْوَامِ التَّسْعَةَ ، الَّتِي لَا نَكَادُ نَجِدُ فِيهَا بَيْنَ
سَاعَاتِهَا سَاعَةً كَانَتْ لِلرَّسُولِ خَاصَّةً ، هِيَ الْأَعْوَامُ الَّتِي يَتَطَاوَلُ الْمُتَقَوِّلُونَ
فِيَقُولُونَ : إِنْ الرَّسُولَ عَاشَ فِيهَا لِمَتَاعِهِ ، وَإِنَّهُ بَنَى فِيهَا بِأَرْبَعِ عَشْرَةَ
امْرَأَةً .

وَهَذَا التَّطَاوُلُ يَرُدُّهُ مَاقَدَّمَتَ ، وَيَرُدُّهُ أَنَّ الرَّسُولَ فِي شِبَابِهِ لَمْ تَعُهدْ
عَلَيْهِ رِيْبَةٌ ، وَقَدْ بَنَى بِخَدِيجَةَ وَهُوَ فِي الْخَامِسَةِ وَالْعَشْرِينَ ، وَبَقِيَ مَعَهَا
إِلَى أَنْ تَوَفَّاها اللَّهُ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِأَعْوَامِ ثَلَاثَةٍ ، كَمَا مَرَّبَكَ . وَكَانَ عَمْرُهُ
إِذْ ذَاكَ خَمْسِينَ سَنَةً .

وَكَانَتْ أَوَّلُ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ وَفَاةِ خَدِيجَةَ هِيَ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ ،
وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ عَمِّهَا السَّكْرَانِ بْنِ عَمْرٍو ، وَكَانَ السَّكْرَانُ هُوَ وَزَوْجُهُ
مِنْ مُهَاجِرَةِ الْحَبَشَةِ ، وَحِينَ رَجَعَ بِزَوْجِهِ مِنَ الْحَبَشَةِ إِلَى مَكَّةَ مَاتَ بِهَا ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَقِبٌ يَرعى سَوْدَةَ ، فَتَزَوَّجَهَا الرَّسُولُ .

ولم يتزوج رسول الله بِكَرّاً غير عائشة بنت أبي بكر، وبني بها بالمدينة، كما تزوج حَفْصَةَ بنت عمر بن الخطاب، وكانت تحت خنيس بن حُذافة السَّهْمِي، ثم مات خُنَيْس فعرضها عُمر على أبي بكر فلم يُجب، ثم عرضها على عُثمان فسَكَت، ورأى الرسول الأَسَى في وَجِه عُمر فَضَم حَفْصَةَ إِلَيْهِ.

وَضَمَّ إِلَيْهِ الرُّسُولُ زَيْنَبَ بنت خُزَيْمَةَ، بعد أن قُتِلَ عنها زوجها عبد الله بن جَحَش، يوم أُحُد.

وَضَمَّ إِلَيْهِ بِنْتَ عَمَتِهِ زَيْنَبَ بنت جَحَش، وكانت مِن قَبْلِهِ زوجة لمولاه زَيْد بن حارثة.

وبعد زَيْنَبَ ضَمَّ إِلَيْهِ الرُّسُولُ رَمْلَةَ بنت أَبِي سُفْيَانَ، وكانت هاجرت مع زَوْجِهَا عُبيد الله بن جَحَش إلى الحبشة، بعد أن أسلما، ثم تنصَّر زوجها هناك في الحبشة، ومات بها، وأَبَتْ هي أن تنصَّر، وبَقِيَتْ على إِسلامِها، فتزوجها الرسولُ وهي بالحِمْشَة.

وَضَمَّ إِلَيْهِ الرُّسُولُ هِنْدَ بنتَ أَبِي أُمَيَّة، وكانت هي الأُخْرَى من مُهاجرات الحبشة، تُوفِّيَ عنها زوجها، وخَلَّفَ لها وَلَدَيْنِ وَبَنَتَيْنِ.

وَضَمَّ إِلَيْهِ الرُّسُولُ خالَةَ خالد بن الوليد، مَيْمُونَةَ بنت الحارث، وكانت قَبْلَهُ عند أَبِي رُهم العامري.

وَضَمَّ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَفِيَّةَ بنت حُجٍّ بن أَخْطَب، وكانت زوجة لِسَلَّام بن مِشْكَم اليَهودي، ثم لَكِنانة بن أَبِي الحُقَيْق، فقتل عنها كنانة يوم خَيْبَر.

وَضُمَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ جُويرية بنت الحارث بن أَبِي ضِرَارٍ ، وَكَانَتْ فِي سَبْيِ غَزْوَةِ الْمُصْطَلِقِ ، وَمَا إِنْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ بِزَوَاجِ الرَّسُولِ مِنْهَا حَتَّى أَطْلَقُوا مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ بَنَى الْمُصْطَلِقِ ، وَقَدْ بَلَغَ عِدَدُ مَنْ أَعْتَقُوا مِائَةً .

ثُمَّ ضُمَ إِلَيْهِ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ ، الَّتِي وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَهُ .
وَتَمَّ امْرَأَتَاهُ هُمَا : عَمْرَةَ ، وَأُمَيْمَةَ ، بَانَتَا عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يَبْنِيَ بِهِمَا .
فَهُنَّ جَمِيعًا ، بِمَا فِيهِنَّ خَدِيجَةُ خَمْسَ عَشْرَةَ امْرَأَةً ، دَخَلَ الرَّسُولُ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ مِنْهُنَّ ، وَقَدْ تَمَّ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ الْوَحْيُ بِتَحْرِيمِ الْجَمْعِ بَيْنَ مَا زُوِّنَ عَلَى أَرْبَعٍ .

وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ اثْنَتَيْنِ مِنْهُنَّ ، وَهُمَا عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ ، كَانَتَا لِابْنِي صَحَابِيِّينَ جَلِيلَيْنِ ، هُمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَأَنَّ ثَلَاثًا مِنْهُنَّ كُنَّ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ إِلَى الْحَبَشَةِ اللَّاتِي فَقَدْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ، وَهُنَّ : سَوْدَةُ ، وَرَمْلَةُ ، وَهِنْدُ ؛ وَأَنَّ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ ، وَهِيَ زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ ، قُتِلَ عَنْهَا زَوْجُهَا يَوْمَ أُحُدٍ ، وَأَنَّ وَاحِدَةً أُخْرَى كَانَتْ خَالَةً لَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الْفَارِسِ الْمَعْرُوفِ ، وَكَانَ بَنَاءُ الرَّسُولِ بِهَا مَعَ دُخُولِ خَالِدٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ ، وَهِيَ جُويرية بنت الحارث ، قَرَّبَ الرَّسُولُ بِنَاتِهِ بِهَا مَا بَيْنَ بَنَى الْمُصْطَلِقِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَّ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ ، وَهِيَ بِنْتُ عَمَتِهِ ، زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ ، كَانَ بِنَاؤُهَا بِهَا تَشْرِيعًا فِي الْإِسْلَامِ فِي إِبْطَالِ جَعْلِ الْمَوْلَى لَهُ حُكْمِ الْإِبْنِ ، وَأَنَّ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ ، وَهِيَ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ ، كَانَتْ قَدْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ .

وأما عن صَفِيَّة بنت حُيِّ اليهودية فلقد كادت تشير لجاجا بين المسلمين ، حين وقعت في نصيب دحية بن خليفة الكلبي ، فحسم الرسولُ هذا الخلاف ببناؤه بها ، وكانت من بيت رياسة في اليهود .

أَرَأَيْتَ إلى الرسول وَمَنْ بَنَى بِهِن ، وكيف بنى بهن ، ثم أَرَأَيْتَ إلى أَنْ هذا كُلُّهُ كان في تلك الأعوام التي أحيطت بالشدائد ، وكان عبء تدبير هذا كله على عاتقه . ثم استمع لتعلم كيف كان الرسول في حياته ، لقد كان زاهداً في دُنْيَاه ، غليظاً على نفسه في مَسْكَنِهِ ومَأْكَلِهِ ومَشْرَبِهِ وملبسه ، وكثيراً ما كان يَجْتَزِي بالخبز والماء .

وكم كانت الشهور تَمْضِي دون أَنْ تُوقَد في داره نار لِطَهْنِي ، وكثيراً ما مَرَّتْ وهو يَرْفُو ثوبه بيده .

وكان صلى الله عليه وسلم يرقد ليس بينه وبين الأرض إلا حصير قد أَثَّرَ بِجَنْبِهِ ، وتحت رأسه وسادة من آدم محشوة ليفاً ، وكانت بيوته من لبن ، والحجر من جريد النخل ، على أبوابها المَسُوح من شعر أسود .

ولقد دخلت امرأة من الأنصار على عائشة فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية ، فانطلقت فبعثت إليها بفراش حشوه صوف ، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا فأخبرته ، فأمرها بردها ثلاثاً ، فلم تفعل ، فقال لها صلى الله عليه وسلم ؟ يا عائشة ، لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة .

ثم هو بعد هذا كان القَوَّام الصَوَّام المتبتل . فآية دنيا تلك التي أرادها الرسول بهذا الزواج ؟ وإن حياة الرسول الأولى لتُملَى عليه حياته

الثانية ، ولقد كان الرسول عفاً في شبابه ، أثقل أعباء مع عفته في حياته الأخيرة .

صفحات من جهاد طويل متصل أخرج بها محمد الجزيرة العربية من عماية الضلال إلى نور الحقيقة ، ومن رجس الشرك إلى طهر الإيمان ، ومن آثام الباطل إلى صالحات الأعمال .

فإذا الجزيرة العربية على دين الإسلام ، تؤمن برب واحد حق ، بعد أن كانت موزعة بين أرباب كثرة زائفة ، برئت من الأوثان والأصنام ، وكانت آفة العقل ، واطرحت وأد البنات ، وكان سبة الأبد ، وعفت عن الآثام ، وكانت غارقة فيها للأذقان ، واستقامت على الطريق لتحمل راية الدعوة ، تبشر بها في الآفاق ، فإذا هي بعد قليل قد أظلت برايتها بقاعاً لا تحصى ، وخلقا لا يعد .

تلك حياة الرسول أجملت لك مآثرها وماتم منها ، وماتم هذا كله بعيداً عن تدبير السماء ، وماتم هذا كله إلا عن وحى متصل يُملى على الرسول بُكرة وعشياً ، فيُمليه هو على قومه بُكرة وعشياً .

٩ - كتاب الله

وهذا الوحي الذي تلقاه الرسول عن ربه، وتلقاه المسلمون عن رسولهم، إلى أن قبضه الله إليه، هو هذا الكتاب الكريم الذي جمع للمسلمين دينهم، وجمعهم على دينهم، وحفظ لهم حياتهم أمة مسلمة، وحفظهم على حياتهم إخوة مسلمين.

وما من شك في أن هذا الكتاب الكريم يحمل معجزة ثانية خالدة يخلوده، فلقد كانت معجزته الأولى في بيانه الذي خرس معه الألسنة فما تنطق، وفي فصاحته التي شدهت معها الأفئدة فما تعي، وسوف يظل هذا البيان، وتلك الفصاحة، حجة على العالمين.

تلك كانت معجزة القرآن الأولى، يوم طالع الرسول العرب، وهم ما هم بياناً وفصاحة، فخرؤا لها ساجدين، وأذعنوا لها مسلمين.

أما عن معجزته الثانية فهي في حمايته أمة من أن تشيع في أمم، ولغة من أن تذوب في لغات.

فما نعرف شيئاً حمى اللغة العربية من الضياع - مع تلك الأزمات العاصفة التي مرت بها، والتي كم أودت ميثلات لها بلغات وببلات من السنة - غير هذا الكتاب الكريم. أبعدت ما أبعدت الشعوب العربية عن الكلام بلغتها العربية، وكان هو مردّها إليها، كلما أوشكت أن تنفصم صلتها بها ربطها هو بها.

وهكذا عاشت الأمة العربية بعيدة بكل ما في يديها عن لغتها ،
قريبةً بهذا الكتاب وحده إلى لغتها .

وحين حَمَى هذا الكتابُ اللغةَ لأهلها ، حَمَى هؤلاء العرب من أن يتفرَّقوا
أبدى سبًا ، فلو أنَّ الزمنَ بَلَّبلَ ألسنتهم أَمَا مختلفة ، ذات ألسنة
مختلفة ، ماوُجدت بينهم هذه الصِّلة الضامة من اجتماع على تراث
خالد ، كان هو بمثابة الأب الروحي ، الذي يصل بين الأرواح والنفوس
والقلوب .

ويكذبك من يُنكر عليك أثر اللغة في التقريب بين شعوب مُختلفة
الجنس ، فما بالك بشعوب يكاد يجمعها جنس واحد .

وكما حَفَظ هذا الكتابُ الكريم هذا المُقَوِّم للأمة العربية ، حَفَظ
مُقَوِّمًا آخر هو الدين ، فلقد عاش هذا الكتاب على الألسنة وفي القلوب ،
فوق ما هو مكتوب يُسَمَّع ويُتلى في أوقات متلاحقة مُتصلة ، لا يكاد
الناس ينسون حتى يتذكروا ، ولا يكادون يُبعدون حتى يَقربوا ، فإذا هم
على دينهم كما هم على لغتهم ، وإذا هذه اللغة وذاك الدين يُمسكان
الأمة العربية فلا تفضل عنها لغتها ، ولا تفضل هي عن دينها .

ولا غرو أن كانت للمسلمين به عنايات متصلة طالت وتنوعت ،
وهذا أوان ضَمَّ هذا كله في سرِّد مُختصر جامع ، يَعرف به المسلم مايتصل
بقرآنه في يُسر يسير ، دون أن يَقُوتَه شيء ، أو يُبْهم عليه أمرٌ .

الباب الثاني القرآن الكريم

١ - أمية الرسول

لقد كان محمد أمياً ، لا يعرف أن يقرأ ، ولا يعرف أن يكتب ، ما في ذلك شك ، يذُلك على ذلك اتخاذه ، بعد أن أوحى إليه ، كُتَاباً يكتبون عنه الوحى ، منهم : أبوبكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وأبى بن كعب بن قيس ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ومحمد ابن مسلمة ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وأبان بن سعيد بن العاص ، وأخوه خالد بن سعيد ، وثابت بن قيس ، وحَنْظَلَةُ بن الربيع ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الأرقم ، والعلاء بن عُتْبَة ، والمُغِيرَة بن شُعْبَة ، وشُرْحَبِيل بن حَسَنَة .

وكان أكثرهم كتابةً عنه : زيد بن ثابت ، ومعاوية (١) .

ويقال : إن على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، كانا يكتبان الوحى ، فإن غابا كتبه أبى بن كعب ، وزيد بن ثابت .

وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان يكتبان بين يديه ، صلى الله عليه وسلم ، فى حوائجه .

وكان المغيرة بن شعبة ، والحصين بن تمير ، يكتبان ما بين الناس .

وكان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث ، والعلاء بن عقبة ، يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياهم ، وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء .

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري (١٢ - ١٤) تاريخ الطبرى (٧ :

١٧٣ طبعة دار المعارف) العقد الفريد لابن عبد ربه (٤ : ١٦١ طبعة لجنة

التأليف) شرح المواهب اللدنية للزرقانى (٣ : ٣١١) .

وكان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك ، مع مايكتبه من الوحي .
وكان مُعَيْقِب بن أَبِي فاطمة ، حليف بني أسد ، يكتب مغانم
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وكان حنظلة بن الربيع بن المرقع بن صيفي الأسدي ، خليفة كل
كاتب من كتاب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إذا غاب عن عمله ، فغلب
عليه اسم الكاتب .

وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب للنبي ، صلى الله عليه وسلم ،
ثم ارتد ولحق بالمشركين (١) .

كما يدل ذلك على هذا ما كان عند صلح الحديبية ، حين دعا رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، علي بن أبي طالب ليكتب ما صالح عليه رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، سهيل بن عمرو ، رسول قريش إليه في ذلك الصلح (٢) .

كما يدل ذلك أيضًا ما ذكره المؤرخون ، عند الكلام على
غزوة «أحد» ، أن العباس ، وهو بمكة ، كتب إلى النبي كتابًا يُخبره فيه
بتجمع قريش وخروجهم ، وأن العباس أرسل هذا الكتاب مع رجل
من بني غفار ، وأن النبي ، حين جاءه الغفاري بكتاب العباس ، استدعى
أبي بن كعب - وكان كاتبه - ودفع إليه الكتاب يقرؤه عليه ، وحين
انتهى «أبي» من قراءة الكتاب استكتمه النبي .

ولو كان النبي غير أمي لكان نفسه دعوة «أبي» لقراءة كتاب العباس
في أمر ذي بال .

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري (١٣ - ١٤) .

(٢) السيرة لابن هشام (٣ : ٣٣١ - ٣٣٢) .

وثمة رابعة تزيدك دليلاً رابعاً ، يذكرها المؤرخون أيضاً مع وفود وفد ثقيف على النبي ، فلقد سألوا النبي ، حين أسلموا ، أن يكتب لهم كتاباً فيه شروط ، فقال لهم : اكتبوا ما بدا لكم ثم اثبتوني به . فسأله في كتابهم أن يحل لهم الربا والزنا . فأبى علي بن أبي طالب أن يكتب لهم ، فسألوا خالد بن سعيد بن العاص أن يكتب لهم ، فقال له علي : تدرى ماتكتب ؟ قال : أكتب ما قالوا ، ورسول الله أولى بأمره .

فذهبوا بالكتاب إلى رسول الله ، فقال للقارئ : اقرأ ، فلما انتهى إلى الربا ، قال له الرسول : ضع يدى عليها ، فوضع يده ، فقال : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا» (١) ثم محاها . فلما بلغ «الزنا» وضع يده عليها وقال : «ولا تقربوا الزنا» (١) ثم محاها ، وأمر بكتابنا أن يُنسخ لنا (٢) .

ولقد عثر الباحثون على الكتابين المرسلين من النبي إلى المقوقس وإلى المنذر بن ساوى ، والكتاب الأول محفوظ في دار الآثار النبوية في الآستانة ، وكان قد عثر عليه عالم فرنسي في دير بمصر قرب أخميم ؛ والكتاب الثاني محفوظ بمكتبة فينا .

ومن قبل هذه الأدلة يقول تعالى في الرسول : «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي» (٣) . ويقول تعالى في الرسول أيضاً : «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك» (٤) .

(١) الإسراء : ٣٢ .

(٢) أسد الغابة ترجمة (تميم بن جراشة) .

(٣) الأعراف : ١٥٦ .

(٤) العنكبوت : ٤٨ .

ولم تكن البيئة العربية على هذا بيئةً كاتبة قارئة، بل كان ذلك فيها شيئاً يُعد ويُحصى، وكان حَظ المدينة من ذلك دون حَظ مكة، ولم يكن في المدينة، حين هاجر إليها الرسول، غيرُ بضعة عشر رجلاً يعرفون الكتابة، منهم: سعد بن زُرارة، والمُنذر بن عمرو، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورافع بن مالك، وأوس بن خُولي.

ولقد أحسَّ الرسول ذلك بعد هجرته إلى المدينة، فكان أول ما فعله بعد انتصاره في بدر، وأسرِه من أسر من رجال قريش القارئين الكاتبين، أن جعل فدية هؤلاء أن يُعلِّم كل رجل منهم عشرةً من صبيان المدينة، وبهذا بدأت الكتابة تَروج سوقها في المدينة.

حتى إذا كان عهد عمر بن الخطاب أمر بجمع الصبيان في المكتب، وأمر عبد عامر بن عبد الخُزاعي أن يتعهدهم بالتعليم، وجعل له رِزقاً على ذلك يتقاضاه من بيت المال.

وكان المعلم يجلس للصبيان بعد صلاة الصبح إلى أن يرتفع الضحى، ومن بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر.

وحين خرج عمر إلى الشام وغاب عن المدينة شهراً استوحش إليه الناس، وخرج صبيان المكتب للقاءه على مسيرة يوم من المدينة، وكان ذلك يوم الخميس، ورجعوا معه إلى المدينة يوم الجمعة، وقد انقطعوا عن المكتب يومين أجازهما لهم عمر، وكانت بعد ذلك عادة مُتبعة^(١).

وحين اختار الله لرسالته محمداً اختار فيه صفات حِسِّية وصفات معنوية، أمدَّهما به وطَبَّعه عليهما، فوهبه من الأولى نفساً قوية،

(١) عنوان البيان. الفواكه الدواني على رسالة أبي زيدون القيرواني.

وروحاً عالية ، وقلباً كبيراً ، وذهناً وقادراً ، وبصيرة نفاذة ، ولساناً مبيناً ، وفكراً واعياً ، ووهبه من الثانية صدق لسان ، وطهارة ذيل ، وعفة بصر ، وأمانة يد ، ورحمة قلب ، ورقة وجدان ، ونبل عاطفة ، ومضاء عزيمة ، ورحمة للناس جميعاً .

وكان اختيار الله له ، أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يُضيف إلى إذعان الناس له وإيمانهم برسائله سبباً يُفسره تعالى في قوله : « وما كُنْتُ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِيَمِينِكَ » (١) ، ويُبينه صدورُ هذا الوحي على لسانه يتلوه على قومه بكرةً وعشياً ، ولا تبدل فيه ولا تغيير ، وما يقوى على مثلها إلا من يملك أسفاراً يعود إليها ليستظهر ما فيها .

وليس في منطق الرسائل أن تكون الحجة للناس عليها ، بل هي لا تطالع الناس إلا والحجة لها عليهم ، كما لا تطالعهم إلا وفي صفحاتها الجواب على كل ما يُصوره لهم تصوُّرهم ؛ تحوط السماء رسالاتها بهذا كله لكيلا يكون للناس على الله حجة ، وليكون منطق الرسائل من منطق الناس ، لا تتلوى عليهم الرسالة فيلتووا هم عليها .

ولم يكن اختيار محمد قارئاً و كاتباً شيئاً يعز على السماء ، ولكنه كان شيئاً إن تم يهون من حجة السماء في نفوس الناس ، وكانوا عندها يملكون أن يقولوا باطلاً ، ما حرص القرآن على ألا يقولوه : من أن هذا الذي جاء به الرسول أخذه من أسفار سابقة .

وهذه التي ألزمتها حجة السماء السلف من قبل ، فأدعوا لها عن وعي

(١) العنكبوت : ٤٨ .

وبصر - وأعنى به أمية الرسول - أراد أن يُشيرها نفرٌ من الخلف من بعد ليخرجوا على حُجة السماء عن غير وعى ولا بصر .

غير أننا نفيد من هذا الذى يريد الخلف أن يثيروه تأكيد المعنى الذى قدّمناه من أن حجة السماء تجيء أشمل ماتكون بشكوك العقول ، مُحِيطَة بكلّ ما يصدر عنهم فيها ، يستوى فى ذلك أولهم وآخرهم .

وقد ننسى مع هؤلاء المخالفين الطاعنين تقرير القرآن الصادق عن أمية محمد ، والأدلة القائمة فى ظل القرآن على ذلك ، قد ننسى هذا وذاك لنسائلهم : أى جديد يفيدهم هذا - إن صح - وقد مضى على رسالة محمد ما يقرب من أربعة عشر قرناً ، خطا فيها العلم والبحث خطوات سريعة ، وما وجدنا شيئاً ينال من هذه الرسالة من قرب أو من بعد ، جهر به أو أسرّ من يريدون أن يجعلوا محمداً قارئاً كاتباً ، وأن يجعلوا من هذا سبباً إلى أنه نُقل عن أسفار سابقة .

٢- نزول الوحي

وقد تقدم أن ابتداء نزول الوحي كان في السابع عشر من رمضان ، من السنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول ، وأن قوله تعالى : «إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» (١) يُشير إلى ذلك ، فالتقاء الجمعين - أعنى المسلمين والمشركين ببدر - كان في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وفي مثلها من السنة الحادية والأربعين من مولده كان ابتداء نزول الفرقان . ينضم إلى هذه الآية قوله تعالى : «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هُدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان» (٢) .

والصحيح أن أول منازل من القرآن قوله تعالى : «اقرأ باسم ربك الذي خلق» (٣) ثم كانت فترة الوحي التي أشرنا إليها من قبل ، والتي مكثت سنين ثلاثاً . وبعدها أخذ القرآن ينزل على الرسول منجماً ، فنزلت : ن والقلم ، ثم : المزمل ، ثم : المدثر (٤) ، إلى غير ذلك مما نزل مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة ، منذ بُعث إلى أن هاجر ، وكان ذلك اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، أى منذ اليوم السابع عشر من رمضان من سنة إحدى وأربعين من مولده إلى اليوم الأول من شهر ربيع الأول من سنة أربع وخمسين من مولده .

(١) الأنفال : ٤١ .

(٢) البقرة : ١٨٥ .

(٣) العلق : ١ .

(٤) الفهرست لابن النديم (ص : ٣٧) المطبعة الرحمانية .

وأما آخر ما نزل من القرآن الكريم فمختلف فيه، فقليل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾^(١).

وقيل: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٢).

وقيل: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^(٣)، وكان بين نزولها ووفاة النبي، صلى الله عليه وسلم، أحد وثمانون يوماً، وقيل: تسع ليالٍ.

والمتفق عليه، وعليه المصحف الذي بين أيدينا، أن المدني من سور القرآن ثمان وعشرون سورة، هي:

- (١) البقرة (٢) آل عمران (٣) النساء (٤) المائدة (٥) الأنفال (٦) التوبة (٧) الرعد (٨) الحج (٩) النور (١٠) الأحزاب (١١) محمد (١٢) الفتح (١٣) الحجرات (١٤) الرحمن (١٥) الحديد (١٦) المجادلة (١٧) الحشر (١٨) الممتحنة (١٩) الصف (٢٠) الجمعة (٢١) المنافقون (٢٢) التغابن (٢٣) الطلاق (٢٤) التحريم (٢٥) الإنسان (٢٦) البينة (٢٧) الزلزلة (٢٨) النصر.

وما بعد هذه السور الثماني والعشرين فهو مكِّي، أعني نزل بمكة وما حوالها.

(١) النصر: ١.

(٢) النساء: ١٧٥.

(٣) البقرة: ٢٨١.

أما على رأي من يقول: إن المراد بالمكي هو ما جاء خطاباً لأهل مكة وأن المدني هو ما جاء خطاباً لأهل المدينة، فالأمر يختلف.

وإذا عرفنا أن سور القرآن عددها أربع عشرة ومائة سورة^(١)، كان ما نزل بمكة هو ست وثمانون سورة.

وإذا شئت مزيداً من الحصر فعدد آيات السور المدنية الثماني والعشرين هو ثلاث وعشرون وستمائة وألف آية «١٦٢٣»، وعدد آيات السور المكية الست والثمانين هو ثلاث عشرة وستمائة وأربعة آلاف آية «٤٦١٣»، فيكون مجموع آي القرآن، مدنية ومكية: ستا وثلاثين ومائتين وستة آلاف «٦٢٣٦». وهذا هو المعتقد به.

وأنت بهذا تجد أن أكثر القرآن نزل بمكة قبل الهجرة، وأن السور المدنية تكاد تعدل الثلث من مجموع السور المكية، تزيد على الثلث قليلاً، وأن مجموع آيات السور المدنية يكاد يعدل الثلث من مجموع السور المكية، ينقص عن الثلث قليلاً.

(١) هذا ما عليه الإجماع. ومن السلف من يجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة، وعلى هذا يكون عدد السور ١١٣؛ وفي مصحف أبي ١١٦ لأنه زاد في الآخر سورتين هما: الجيد والخلع.

٣ - عدد الآيات

والآية طائفة من القرآن مُنقطعة عما قبلها وعما بعدها ، وهي مسألة توقيفية أخذت عن الرسول . وهذا الاختلاف الذى وقع بين السلف فى عدد الآيات مرجعه إلى اختلاف السامعين عن الرسول فى ضبط الوقف والوصل ، فالمعروف أنه كان ، صلى الله عليه وسلم ، يقف على رؤوس الآى للتوقيف ، فإذا علم محلها وصل للتمام ، فوهم بعض السامعين عند الوصل أن ليس ثمة فصل ، ومن هنا كان الخلاف .

وسور القرآن بالنظر إلى اختلاف عدد آياتها ثلاثة أقسام :

١ - قسم لم يختلف فيه إجمالاً ولا تفصيلاً .

٢ - قسم اختلف فيه تفصيلاً لا إجمالاً .

٣ - قسم اختلف فيه تفصيلاً وإجمالاً .

فالقسم الذى لم يختلف فيه إجمالاً وتفصيلاً أربعون سورة ، وهي :

(١) يوسف : ١١١ - (٢) الحجر : ٩٩ - (٣) النحل : ١٢٨ -

(٤) الفرقان : ٧٧ - (٥) الأحزاب : ٧٣ - (٦) الفتح : ٢٩ - (٧) الحجرات :

١٨ - (٨) التغابن : ١٨ (٩) ق : ٤٥ - (١٠) الذاريات : ٦٠ -

(١١) القمر : ٥٥ - (١٢) الحشر : ٢٤ - (١٣) الممتحنة : ١٣ -

(١٤) الصف : ١٤ - (١٥) الجمعة : ١١ - (١٦) المنافقون : ١١ -

(١٧) الضحى : ١١ - (١٨) العاديات : ١١ - (١٩) التحريم : ١٢ -

(٢٠) ن : ٥٢ - (٢١) الإنسان : ٣١ - (٢٢) المرسلات : ٥٠ -

(٢٣) التكوير : ٢٩ - (٢٤) الانفطار : ١٩ - (٢٥) سبح : ١٩ -

- (٢٦) التطفييف : ٣٦ - (٢٧) البروج : ٢٢ - (٢٨) الغاشية : ٢٦ -
(٢٩) البلد : ٢٠ - (٣٠) الليل : ٢١ - (٣١) ألم نشرح : ٨ -
(٣٢) التين : ٨ - (٣٣) أهاكم : ٨ - (٣٤) همزة : ٩ - (٣٥) الفيل :
٥ - (٣٦) الفلق : ٥ - (٣٧) تبت : ٥ - (٣٨) الكافرون : ٦ -
(٣٩) الكوثر : ٣ - (٤٠) النصر : ٣ .



والقسم الثاني ، وهو الذى اختلف فيه تفصيلاً لإجمالاً ، أربع
سور ، وهى :

(١) القصص : ٨٨ - يعد أهل الكوفة « طسم » آية ، ويعد غيرهم
بدلها « أمة من الناس يسقون » (الآية : ٢٢) .

(٢) العنكبوت : ٥٩ - يعد أهل الكوفة « ألم » آية ، ويعد
البصريون بدلها « مخلصين له الدين » (الآية : ٦٥) . والشاميون
« وتقطعون السبيل » (الآية : ٢٩) .

(٣) الجن : ٢٨ - يعد المكي « قل إني لن يُجبرني من الله أحد »
(الآية : ٢٢) . ويعد غيره بدلها « ولن أجد من دونه ملتحداً » (الآية :
٢٢) .

(٤) العصر : ٣ - الكثرة تعد « والعصر » آية ، غير المدنى فإنه
يعد بدلها « وتواصوا بالحق » (الآية : ٣) .



وأما القسم الثالث ، وهو الذى اختلف فيه تفصيلاً وإجمالاً ،
سبعون سورة ، وهى :

(١) الفاتحة - من حيث التفصيل ، فالجمهور على أنها سبع آيات ، يعد الكوفي والمكي البسمة دون «أنعمت عليهم» . ويعكس الباقون . ومن حيث الإجمال : فالحسن يعد آياتها ثمانى آيات ، حين يعد البسمة و«أنعمت عليهم» آيتين .

ويعدها بعضهم ستاً ، فلا يعدون هاتين الآيتين ، كما يعدها آخرون تسعاً ، فيعدون هاتين ويضمون إليهما «إياك نعبد» .

- (٢) البقرة - ٢٥٨ ، وقيل : ٢٥٧ ، وقيل : ٢٥٦ .
- (٣) آل عمران - ٢٠٠ ، وقيل : ١٩٩ .
- (٤) النساء - ١٧٥ ، وقيل : ١٧٦ ، وقيل : ١٧٧ .
- (٥) المائدة - ١٢٠ ، وقيل : ١٢٢ ، وقيل : ١٢٣ .
- (٦) الأنعام - ١٦٥ ، وقيل : ١٦٦ ، وقيل : ١٦٧ .
- (٧) الأعراف - ٢٠٥ ، وقيل : ٢٠٦ .
- (٨) الأنفال - ٧٥ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل : ٧٧ .
- (٩) براءة - ١٣٠ ، وقيل : ١٢٩ .
- (١٠) يونس - ١١٠ ، وقيل : ١٠٩ .
- (١١) هود - ١٢١ ، وقيل : ١٢٢ ، وقيل : ١٢٣ .
- (١٢) الرعد - ٤٣ ، وقيل : ٤٤ ، وقيل : ٤٧ .
- (١٣) إبراهيم - ٥١ ، وقيل : ٥٢ ، وقيل : ٥٤ ، وقيل : ٥٥ .
- (١٤) الاسراء - ١١٠ ، وقيل : ١١١ .
- (١٥) الكهف - ١٠٥ ، وقيل : ١٠٦ ، وقيل : ١١٠ ، وقيل : ١١١ .

- (١٦) مريم - ٩٩، وقيل: ٩٨.
(١٧) طه - ١٣٠، وقيل: ١٣٢، وقيل: ١٣٤، وقيل: ١٣٥. وقيل:
١٤٠.
(١٨) الأنبياء - ١١١، وقيل: ١١٢.
(١٩) الحج - ٧٤، وقيل: ٧٥، وقيل: ٧٦، وقيل: ٧٨.
(٢٠) المؤمنون - ١١٨، وقيل: ١١٩.
(٢١) النور - ٦٢، وقيل: ٦٤.
(٢٢) الشعراء - ٢٢٦، وقيل: ٢٢٧.
(٢٣) النمل - ٩٢، وقيل: ٩٤، وقيل: ٩٥.
(٢٤) الروم - ٦٠، وقيل: ٥٩.
(٢٥) لقمان - ٣٣، وقيل: ٣٤.
(٢٦) السجدة - ٣٠، وقيل: ٢٩.
(٢٧) سبأ - ٥٤، وقيل: ٥٥.
(٢٨) فاطر - ٦٤، وقيل: ٦٥.
(٢٩) يس - ٨٣، وقيل: ٨٢.
(٣٠) الصافات - ١٨١، وقيل: ١٨٢.
(٣١) ص - ٨٥، وقيل: ٨٦، وقيل: ٨٨.
(٣٢) الزمر - ٧٢، وقيل: ٧٣، وقيل: ٧٥.
(٣٣) غافر - ٨٢، وقيل: ٨٤، وقيل: ٨٥، وقيل: ٨٦.
(٣٤) فصلت - ٥٢، وقيل: ٥٣، وقيل: ٥٤.
(٣٥) الشورى - ٥٣، وقيل: ٥٠.
(٣٦) الزخرف - ٨٩، وقيل: ٨٨.

- (٣٧) الدخان — ٥٦ ، وقيل : ٥٧ ، وقيل : ٥٩ .
(٣٨) الجاثية — ٣٦ ، وقيل : ٣٧ .
(٣٩) الأحقاف — ٣٤ ، وقيل : ٣٥ .
(٤٠) القتال — ٤٠ ، وقيل : ٣٩ ، وقيل : ٣٨ .
(٤١) الطور — ٤٧ ، وقيل : ٤٨ ، وقيل : ٤٩ .
(٤٢) النجم — ٦١ ، وقيل : ٦٢ .
(٤٣) الرحمن — ٧٧ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل : ٧٨ .
(٤٤) الواقعة — ٩٩ ، وقيل : ٩٧ ، وقيل : ٩٦ .
(٤٥) الحديد — ٣٨ ، وقيل : ٣٩ .
(٤٦) المجادلة — ٢٢ ، وقيل : ٢١ .
(٤٧) الطلاق — ١١ ، وقيل : ١٢ .
(٤٨) الملك — ٣٠ ، وقيل : ٣١ ، والصحيح الأول .
(٤٩) الحاقة — ٥١ ، وقيل : ٥٢ .
(٥٠) المعارج — ٤٤ ، وقيل : ٤٣ .
(٥١) نوح — ٣٠ ، وقيل : ٢٩ ، وقيل : ٢٨ .
(٥٢) المزمل — ٢٠ ، وقيل : ١٩ ، وقيل : ١٨ .
(٥٣) المدثر — ٥٥ ، وقيل : ٥٦ .
(٥٤) القيامة — ٤٠ ، وقيل : ٣٩ .
(٥٥) النبأ — ٤٠ ، وقيل : ٤١ .
(٥٦) النازعات — ٤٥ ، وقيل : ٤٦ .
(٥٧) عبس — ٤٠ ، وقيل : ٤١ ، وقيل : ٤٢ .
(٥٨) الانشقاق — ٢٥ ، وقيل : ٢٤ ، وقيل : ٢٣ .

- (٥٩) الطارق - ١٧ ، وقيل : ١٦ .
(٦٠) الفجر - ٣٠ ، وقيل : ٢٩ ، وقيل : ٣٢ .
(٦١) الشمس - ١٥ ، وقيل : ١٦ .
(٦٢) العلق - ٢٠ ، وقيل : ١٩ .
(٦٣) القدر - ٥ ، وقيل : ٦ .
(٦٤) البينة - ٨ ، وقيل : ٩ .
(٦٥) الزلزلة - ٩ ، وقيل : ٨ .
(٦٦) القارعة - ٨ ، وقيل : ١٠ ، وقيل : ١١ .
(٦٧) قريش - ٤ ، وقيل : ٥ .
(٦٨) الماعون - ٧ ، وقيل : ٦ .
(٦٩) الإخلاص - ٤ ، وقيل : ٥ .
(٧٠) الناس - ٧ ، وقيل : ٦ .

٤ - ترتيب الآيات

وكما كان ضبط الآيات بفواصلها توقيفاً ، كذلك كان وضعها في مواضعها توقيفاً ، دليل ذلك الآية (واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله) - البقرة : ٢٨١ - كانت آخر مانزل ، فوضعها النبي عن وحى من ربه بين آيتي الربا (١) والدين (٢) من سورة البقرة ، وهكذا كان الأمر في سائر الآيات .

(١) ففي سورة الأنعام - وهي مكية - الآيات : ٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٣ ، فهي مدنية .

(٢) وفي سورة الأعراف - وهي مكية - الآيات من ١٦٣ - ١٧٠ ، فهي مدنية .

(٣) وفي سورة يونس - وهي مكية - الآيات : ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ ، فهي مدنية .

(٤) وفي سورة هود - وهي مكية - الآيات : ١٢ و ١٧ و ١١٤ ، فهي مدنية .

(٥) وفي سورة يوسف - وهي مكية - الآيات : ١ و ٢ و ٣ و ٧ ، فهي مدنية .

(٦) وفي سورة إبراهيم - وهي مكية - الآيتان : ٢٨ و ٢٩ ، فهما مدنيتان .

(١) البقرة : ٢٧٨ - ٢٨٠ .

(٢) البقرة : ٢٨٤ .

(٧) وفي سورة الحجر - وهي مكية - الآية: ٨٧، فهي مدنية.

(٨) وفي سورة النحل - وهي مكية - الآيات الثلاث الأخيرة، فهي مدنية.

(٩) وفي سورة الإسراء - وهي مكية - الآيات: ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ و ٧٣ - ٨٠، فهي مدنية.

(١٠) وفي سورة الكهف - وهي مكية - الآيات: ٢٨ و ٨٣ - ١٠١، فهي مدنية.

(١١) وفي سورة مريم - وهي مكية - الآيتان: ٥٨ و ٧١، فهما مدنيتان.

(١٢) وفي سورة طه - وهي مكية - الآيتان: ١٣٠ و ١٣١، فهما مدنيتان.

(١٣) وفي سورة الفرقان - وهي مكية - الآيات: ٦٨ و ٦٩ و ٧٠، فهي مدنية.

(١٤) وفي سورة الشعراء - وهي مكية - الآيات: ١٩٧ و ٢٢٤ - إلى آخر السورة، فهي مدنية.

(١٥) وفي سورة القصص - وهي مكية - الآيات: ٥٢ - ٥٥، فهي مدنية.

(١٦) وفي سورة العنكبوت - وهي مكية - الآيات من ١ - ١١، فهي مدنية.

(١٧) وفي سورة الروم - وهي مكية - الآية: ١٧، فهي مدنية.

(١٨) وفي سورة لقمان - وهي مكية - الآيات : ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ ،
فهي مدنية .

(١٩) وفي سورة السجدة - وهي مكية - الآيات من ١٦ - ٢٠ ،
فهي مدنية .

(٢٠) وفي سورة سبأ - وهي مكية - الآية : ٦ ، فهي مدنية .

(٢١) وفي سورة يس - وهي مكية - الآية : ٤٥ ، فهي مدنية .

(٢٢) وفي سورة الزمر - وهي مكية - الآيات : ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ ،
فهي مدنية .

(٢٣) وفي سورة غافر - وهي مكية - الآيتان : ٥٦ و ٥٧ ، فهما
مدنيتان .

(٢٤) وفي سورة الشورى - وهي مكية - الآيات : ٢٣ و ٢٤ و ٢٥
و ٢٧ ، فهي مدنية .

(٢٥) وفي سورة الزخرف - وهي مكية - الآية : ٥٤ ، فهي مدنية .

(٢٦) وفي سورة الأحقاف - وهي مكية - الآيات : ١٠ و ١٥ و ٣٥ ،
فهي مدنية .

(٢٧) وفي سورة ق - وهي مكية - الآية : ٣٨ ، فهي مدنية .

(٢٨) وفي سورة النجم - وهي مكية - الآية : ٣٢ ، فهي مدنية .

(٢٩) وفي سورة القمر - وهي مكية - الآيات : ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ ،
فهي مدنية .

(٣٠) وفي سورة الواقعة - وهي مكية - الآيتان : ٨١ و ٨٢ ، فهما مدنيتان .

(٣١) وفي سورة القلم - وهي مكية - الآيات : ١٧ - ٣٣ و ٤٨ - ٥٠ ، فهي مدنية .

(٣٢) وفي سورة المزمل - وهي مكية - الآيات : ١٠ و ١١ و ٢٠ ، فهي مدنية .

(٣٣) وفي سورة المرسلات - وهي مكية - الآية : ٤٨ ، فهي مدنية .

(٣٤) وفي سورة الماعون - وهي مكية - الآيات من الرابعة إلى آخر السورة ، فهي مدنية .



هذا عن السور المكية وما فيها من الآيات المدنية ، أما عن السور المدنية وما فيها من آيات مكية :

(٣٥) ففي سورة البقرة - وهي مدنية - الآية : ٢٨١ ، فقد نزلت في حجة الوداع .

(٣٦) وفي سورة المائدة - وهي مدنية - الآية : ٣ ، فقد نزلت بعرفات في حجة الوداع .

(٣٧) وفي سورة الأنفال - وهي مدنية - الآيات من ٣٠ - ٣٦ ، فهي مكية .

(٣٨) وفي سورة التوبة - وهي مدنية - الآيتان الأخيرتان ، فهما مكيتان .

(تأريخ القرآن)

(٣٩) وفي سورة الحج - وهي مدنية - الآيات : ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ ، فقد نزلت بين مكة والمدينة .

(٤٠) وفي سورة محمد - وهي مدنية - الآية : ١٣ ، فقد نزلت في الطريق أثناء الهجرة .

ويرتب الفقهاء على عدد الآيات أحكاماً فقهية ، من ذلك مثلاً : من لم يحفظ الفاتحة فيجب عليه في الصلاة بدلها سبع آيات . هذا فيمن عدّ الفاتحة سبعاً ، كما لا تصح الصلاة بنصف آية .

وحدّ السورة في القرآن أنها تشتمل على آيات ذات فاتحة وخاتمة . وأقل الآيات التي تشتمل عليها السورة ثلاث .

٥ - أسماء السور

وكما كانت الآيات بفواصلها وبترتيبها توقيفا ، كذلك كانت الحال في السور في جمعها وفي أسمائها ، فكلاهما - أعنى اسم السورة وماتنظمه من آيات - توقيف .

وقد يكون للسورة اسم واحد ، وعليه الكثرة من سور القرآن ، وقد يكون لها اسمان فأكثر ، من ذلك مثلا :

١- الفاتحة ، فهي تسمى أيضًا : أم الكتاب ، والسبع المثاني ، والحمد ، والواقية ، والشافية .

٢- النمل ، فهي تسمى أيضًا : سورة سليمان .

٣- السجدة ، فهي تسمى أيضًا : سورة المضاجع .

٤- فاطر ، فهي تسمى أيضًا : سورة الملائكة .

٥- الزمر ، فهي تسمى أيضًا : سورة الغرف .

٦- غافر ، فهي تسمى أيضًا : سورة المؤمن .

٧- الجاثية ، فهي تسمى أيضًا : سورة الدهر .

٨- محمد ، فهي تسمى أيضًا : سورة القتال .

٩- الصف ، فهي تسمى أيضًا : سورة الحواريين .

١٠- تبارك ، فهي تسمى أيضًا : سورة الملك .

١١- عم ، فهي تسمى أيضًا : سورة النبأ ، والتساؤل ، والمعصرات .

١٢- لم يكن ، فهي تسمى أيضًا : سورة أهل الكتاب ، والبينة ، والقيامة .

٦- ترتيب السور

أما عن ترتيب السور ، فمن السلف من يقول إنه توقيفي ، ويستدل على ذلك بورود الحواميم مرتبة ولاء ، وكذا الطواسين ، على حين لم ترتب المسبحات ولاء ، بل جاءت مفصلاً بين سورها ، وفصل بين طسم الشعراء ، وطسم القصص ، بطس ، مع أنها أقصر منها ، ولو كان الترتيب اجتهاداً لذكرت المسبحات ولاء ، وأخرت طس عن القصص .

كما يجعلون فيما نقله « الشهرستاني محمد بن عبد الكريم » في تفسيره « مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار » عند الكلام على قوله تعالى « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني » (١) : هي السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس ؛ دليلاً على أن هذا الترتيب كان بتوقيف من النبي .

والذين يقولون إن ترتيب السور اجتهادي ، يستدلون على ذلك بورود السور مختلفة الترتيب في المصاحف الأربعة التي أثرت عن أربعة من كبار الصحابة ، هم : علي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ، وعبد الله ابن مسعود ، وعبد الله بن عباس .

أما عن مصحف « علي » فيُعزى إليه أنه رأى من الناس طيرةً عند وفاة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فاقسم ألا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن ، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن ، فكان أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه .

(١) الحجر : ٨٧ .

ويروى ابن النديم في كتابه «الفهرست» أن هذا المصحف كان عند أهل جعفر ، ويقول : «ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسنى - رحمه الله - مصحفا قد سقطت منه أوراق بخط علي بن أبي طالب ، يتوارثه بنو حسن على مر الزمان . وهذا ترتيب السور من ذلك المصحف » (١) .

غير أن كتاب «الفهرست» في طبعتيه الأوروبية والمصرية يسقط منه ما بعد هذا ، فلا يورد ترتيب السور الذي أشار إليه .

ونجد اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب ، وهو من رجال القرن الثالث الهجري ، يطالعنا بما سقط من الفهرست في الجزء الثاني من تاريخه (١٥٢ - ١٥٤) طبعة «بريل» سنة ١٨٨٣ م . فيقول قبل أن يسوق الترتيب : وروى بعضهم أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان جمعه - يعني القرآن - لما قبض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأتى به يحمله على جمل ، فقال : هذا القرآن جمعته ، وكان قد جزأه سبعة أجزاء : جزء البقرة ، جزء آل عمران ، جزء النساء ، جزء المائدة ، جزء الأنعام ، جزء الأعراف ، جزء الأنفال ، وذلك باعتبار أول كل جزء .

ويروى غير واحد أن مصحف «علي» كان على ترتيب النزول ، وتقديم المنسوخ على الناسخ (٢) .

وأما عن مصحف «أبي» فيقول ابن النديم : قال الفضل بن شاذان : أخبرنا الثقة من أصحابنا قال : كان تأليف السور في قراءة أبي بن كعب

(١) الفهرست (٤١ - ٤٢) المطبعة الرحمانية .

(٢) تاريخ القرآن للزنجاني (ص : ٢٦) .

بالبصرة في قرية يقال لها : قرية الأنصار ، على رأس فرسخين ، عند محمد بن عبد الملك الأنصارى ، أخرج إلينا مصحفاً وقال : هو مصحف «أبي» رويناه عن آبائنا . فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السور وخواتيم الرسل وعدد الآي (١) .

ثم مضى يذكر السور مرتبة كما جاءت في هذا المصحف .

وأما عن مصحف عبد الله بن مسعود ، فينقل ابن النديم عن الفضل ابن شاذان أيضاً ، فيقول : قال : وجدت في مصحف عبد الله بن مسعود تأليف سور القرآن على هذا الترتيب (٢) .

ثم يسوق ابن النديم هذا الترتيب .

ثم يقول ابن النديم : قال أبو شاذان : قال ابن سيرين : وكان عبد الله بن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه ولا فاتحة الكتاب .

ثم يقول ابن النديم : رأيت عدة مصاحف ذكر نساخها أنها مصحف ابن مسعود ، ليس فيها مصحفان متفقان ، وأكثرها في رق كثير النسخ . وقد رأيت مصحفاً قد كتب منذ نحو مائتي سنة فيه فاتحة الكتاب .

وأما عن مصحف عبد الله بن عباس (٦٨ هـ) ، وكان رأس المفسرين ، فقد ذكر الشهرستاني محمد بن عبد الكريم (٥٤٨ هـ) هذا الترتيب في مقدمة تفسيره «مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار» .

(١) تاريخ القرآن للزنجاني (ص : ٢٦) .

(٢) الفهرست (٢٩ - ٤٠) .

وهاك جدولاً يجمع الترتيب في هذه المصاحف الأربعة :
الجزء الأول

مصحف ابن عباس	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	مصحف على
اقرأ	البقرة	فاتحة الكتاب	١ - البقرة
ن	النساء	البقرة	٢ - يوسف
والضحى	آل عمران	النساء	٣ - العنكبوت
المزمل	المص	آل عمران	٤ - الروم
المدثر	الأنعام	الأنعام	٥ - لقمان
الفاتحة	المائدة	الأعراف	٦ - حم السجدة
تبت	يونس	المائدة	٧ - الذاريات
كورت	براءة	الأنفال	٨ - هل أتى على الإنسان
الأعلى	النحل	التوبة	٩ - ألم تنزيل
والليل	هود	هود	١٠ - السجدة
والفجر	يوسف	مريم	١١ - النازعات
ألم نشرح	بنى إسرائيل	الشعراء	١٢ - إذا الشمس كورت
الرحمن	الأنبياء	الحج	١٣ - إذا السماء انفطرت
والعصر	المؤمنون	يوسف	١٤ - إذا السماء انشقت
الكوثر	الشعراء	الكهف	١٥ - سبح اسم ربك الأعلى
التكاثر	الصفات	النحل	١٦ - لم يكن

الجزء الثاني

مصحف ابن عباس	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	مصحف على
الدين	الأحزاب	الأحزاب	١٧- آل عمران
الفيل	القصص	بنى إسرائيل	١٨- هود
الكافرون	النور	الزمر	١٩- الحج
الإخلاص	الأنفال	حم تنزيل	٢٠- الحجر
النحل	مريم	طه	٢١- الأحزاب
الأعمى	العنكبوت	الأنبياء	٢٢- الدخان
القدر	الروم	النور	٢٣- الحاقة
والشمس	يس	المؤمنون	٢٤- سأل سائل
البروج	الفرقان	حم المؤمن	٢٥- عبس وتولى
التين	الحج	الرعد	٢٦- والشمس وضحاها
قريش	الرعد	طسم	٢٧- إنا أنزلناه
القارعة	سبأ	القصص	٢٨- إذا زلزلت
القيامة	الملائكة	طس	٢٩- ويل لكل همزة
الهمزة	إبراهيم	سليمان	٣٠- ألم تر كيف
والمرسلات	ص	الصفات	٣١- لإيلاف قريش

الجزء الثالث

مصحف ابن عباس	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	مصحف على
ق	الذين كفروا	داود	٣٢ — النساء
البلد	القمر	ص	٣٣ — النحل
الطارق	الزمر	يس	٣٤ — المؤمنون
القمر	الحواميم	أصحاب الحجر	٣٥ — يس
ص	حم المؤمن	حم عسق	٣٦ — حمعسق
الأعراف	حم الزخرف	الروم	٣٧ — الواقعة
الجن	السجدة	الزخرف	٣٨ — تبارك الملك
يس	الأحقاف	حم السجدة	٣٩ — يأبها المدثر
الفرقان	الجاثية	إبراهيم	٤٠ — رأيت
الملائكة	الدخان	الملائكة	٤١ — تبت
مريم	إنا فتحنا	الفتح	٤٢ — قل هو الله أحد
طه	الحديد	محمد	٤٣ — والعصر
الشعراء	سبح	الحديد	٤٤ — القارعة
النمل	الحشر	الظهار	٤٥ — والسماء ذات البروج
القصص	تنزيل	تبارك	٤٦ — والتين والزيتون
بنى إسرائيل	السجدة	الفرقان	٤٧ — طس

الجزء الرابع

مصحف ابن عباس	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	مصحف على
يونس	ق	ألم تنزيل	٤٨ - النمل
هود	الطلاق	نوح	٤٩ - المائدة
يوسف	الحجرات	الأحقاف	٥٠ - يونس
الحجر	تبارك الذي بيده الملك	ق	٥١ - مريم
الأنعام	التغابن	الرحمن	٥٢ - طسم
الصافات	المنافقون	الواقعة	٥٣ - الشعراء
لقمان	الجمعة	الجن	٥٤ - الزخرف
سبا	الحواريون	النجم	٥٥ - الحجرات
الزمر	قل أوحى	ن	٥٦ - ق
المؤمن	إنا أرسلنا نوحا	الحاقة	٥٧ - اقتربت الساعة
حم السجدة	المجادلة	الحشر	٥٨ - الممتحنة
حم عسق	الممتحنة	الممتحنة	٥٩ - والسماء والطارق
الزخرف	يأها النبي لم تخرم	المرسلات	٦٠ - لا أقسم بهذا البلد
الدخان	الرحمن	عم يتساءلون	٦١ - ألم نشرح لك
الجاثية	النجم	الإنسان	٦٢ - والعاديات
الأحقاف	الذاريات	لا أقسم	٦٣ - إنا أعطيناك الكوثر
الذاريات	الطور (١)	كورت	٦٤ - قل يأها الكافرون

(١) وفي رواية أخرى : الطور قبل الذاريات . (ابن النديم) .

الجزء الخامس

مصحف ابن عباس	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	مصحف على
الغاشية	اقتربت الساعة	النازعات	٦٥ - الأنعام
الكهف	الحاقة	عبس	٦٦ - سبحان
النحل	إذا وقعت	المطففون	٦٧ - اقتربت
نوح	ن والقلم	إذا السماء انشقت	٦٨ - الفرقان
إبراهيم	النازعات	التين	٦٩ - موسى
الأنبياء	سأل سائل	اقرأ باسم ربك	٧٠ - فرعون
المؤمنون	المدثر	الحجرات	٧١ - حم
الرعد	المزمل	المنافقون	٧٢ - المؤمن
الطور	المطففين	الجمعة	٧٣ - المجادلة
الملك	عبس	النبي	٧٤ - الحشر
الحاقة	الدهر	الفجر	٧٥ - الجمعة
المعارج	القيامة	الملك	٧٦ - المنافقون
النساء	المرسلات	والليل إذا يغشى	٧٧ - ن والقلم
والنازعات	عم يتساءلون	إذا السماء انفطرت	٧٨ - إنا أرسلنا نوحا
انفطرت	التكوير	الشمس وضحاها	٧٩ - قل أوحى إلى
انشقت	الانفطار	والسما ذات البروج	٨٠ - المرسلات
الروم	هل أتاك حديث الغاشية	الطارق	٨١ - والضحى
العنكبوت	سبح اسم ربك الأعلى	سبح اسم ربك الأعلى	٨٢ - ألهامكم

الجزء السادس

مصحف ابن عباس	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	مصحف على
المطففون	والليل إذا يغشى	الغاشية	٨٣ — الأعراف
البقرة	الفجر	عبس	٨٤ — إبراهيم
الأنفال	البروج	الصف	٨٥ — الكهف
آل عمران	انشقت	الضحى	٨٦ — النور
الحشر	اقرأ باسم ربك	ألم نشرح	٨٧ — ص
الأحزاب	لا أقسم بهذا البلد	القارعة	٨٨ — الزمر
النور	والضحى	التكاثر	٨٩ — الشريعة
المتحنة	ألم نشرح	الخلع	٩٠ — الذين كفروا
الفتح	والسما والطارق	الجيد	٩١ — الحديد
النساء	والعاديات	اللهم إياك نعبد	٩٢ — لا أقسم بيوم القيامة
إذا زلزلت	أرأيت	إذا زلزلت	٩٣ — عم يتساءلون
الحج	القارعة	العاديات	٩٤ — الغاشية
الحديد	لم يكن الذين كفروا	أصحاب الفيل	٩٥ — والفجر
محمد	الشمس وضحاها	التين	٩٦ — والليل إذا يغشى
الإنسان	التين	الكوثر	٩٧ — إذا جاء نصر الله

الجزء السابع

مصحف ابن عباس	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	مصحف على
الطلاق	ويل لكل همزة	القدر	٩٨ — الأنفال
لم يكن	الفيل	الكافرون	٩٩ — براءة
الجمعة	لإيلاف قریش	النصر	١٠٠ — طه
ألم السجدة	الكائر	أبي لهب	١٠١ — الملائكة
المنافقون	إنا أنزلناه	قریش	١٠٢ — الصافات
المجادلة	والعصر	الصمد	١٠٣ — الأحقاف
الحجرات	إذا جاء	الفلق	١٠٤ — الفتح
	نصر الله		
التحريم	الكوثر	الناس	١٠٥ — الطور
التغابن	الكافرون		١٠٦ — النجم
الصف	المسد		١٠٧ — الصف
المائدة	قل هو الله أحد		١٠٨ — التغابن
التوبة			١٠٩ — الطلاق
النصر			١١٠ — المطففون
الواقعة			١١١ — المعوذتين
والعاديات			١١٢ —
الفلق			١١٣ —
الناس			١١٤ —

ويقسمون سور القرآن الكريم أربعة أقسام :

١- الطُّول ، جمع : طولى ، وهى سبع : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس .

٢- المثنون ، وهى ماوى السبع الطُّوال ، سميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها .

٣- المثنائى ، وهى ماوى المئين ، وقد تسمى سور القرآن كلها مثنائى ، ومنه قوله تعالى « كتاباً متشابهاً مثنائى » (١) ، وإنما سمي القرآن مثنائى لأن الأنبياء والقصص تثنى فيه .

٤- المفصل ، وهو مايلئ المثنائى من قصار السور ، وسمى مفصلاً لكثرة الفصول التى بين السور ببسم الله الرحمن الرحيم ، وقيل لقلة المنسخ فيه .

(١) الزمر : ٢٣ .

٧ - الجَمَاع للقرآن

والجَمَاع للقرآن على عهد النبي ، صلى الله عليه وسلم :
على بن أبي طالب .

سعد بن عبيد بن النعمان بن عمرو بن زيد .

أبو الدرداء عويمر بن زيد .

معاذ بن جبل بن أوس .

أبو زيد ثابت بن زيد بن النعمان .

أبي بن كعب بن قيس بن مالك بن امرئ القيس .

عبيد بن معاوية بن زيد بن ثابت بن الضحَّاك (١) .

(١) الفهرست لابن النديم (ص : ٤١) المطبعة الرحمانية .

٨ - الحكمة في نزول القرآن منجماً

وفيما بين السابع عشر من رمضان - من السنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول ، وكان بدء نزول الوحي ، وإلى ما قبل موته ، صلى الله عليه وسلم بأيام لا تجاوز الواحد والثمانين ولا تنقص عن العشرة ، وكان آخر ما نزل من الوحي ، أى في نحو من إحدى وعشرين سنة ، أو على الأصح في نحو من ثمانى عشرة سنة ، بإسقاط المدة التى فتر فيها الوحي التى بلغت ثلاث سنين - نزل هذا القرآن منجماً ، يشرع للناس ، ويتابع الأحداث ، ويُجيب ويبين ، «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً» (١) ، «وقرآنًا فرقناه ليقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً» (٢) .

وما كانت حكمة السماء تقضى إلا بهذا مع أمة يُراد لها أولاً التحول من عقائد إلى عقيدة ، والخروج من وثنية إلى دين ، ومن أوهام وظنون إلى منطق وحق ، ومن لا إيمان إلى إيمان .

تلك خطوة أولى كان من الحكمة أن تبدأ بها الدعوة وتفرغ لها ، حتى إذا ماضت الناس على الطريق أخذتهم بما تحمى إيمانهم به ، فحاطتهم بعبادات ، وألزمهم بواجبات ، والناس لا يَمضون فيما جَدَّ عليهم خرساً لا ينطقون ، وعُمياً لا ينظرون ، وغفلاً لا يتدبرون ، فهم مع هذا كله

(١) الفرقان : ٣٣ .

(٢) الإسراء : ١٠٦ .

سائلون يَتَبَيَّنُونَ ، والوحي يُتَابِعُهُمْ فِي كُلِّ مَاعْنِهِ يَسْتَفْسِرُونَ ، إِذْ بِهِ
تَمَامُ الرِّسَالَةِ .

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ السَّمَاوِيَّةَ بَدَأَتْ جِهَادًا وَعَاشَتْ جِهَادًا ، أَمَلَتْهُ
الْأَيَّامُ ، وَتَمَخَّضَتْ عَنْهُ الْأَعْوَامُ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ فِي عِلْمِ السَّمَاءِ قَبْلَ أَنْ
يَقَعَ ، لَكِنَّهُ كَانَ عَلَى عِلْمِ النَّاسِ جَدِيدًا لَمْ يَقَعَ ، وَكَانَ لَا بَدَّ أَنْ يَلْقَنُوهُ
مَعَ زَمَانِهِ وَأَوَانِهِ .

ثُمَّ مَا أَكْثَرَ مَا أَخَذَ النَّاسُ وَأَعْطَوْا فِي ظِلِّ الدَّعْوَةِ لِتَثْبِيتِ أَرْكَانِهَا
فِي نَفْسِهِمْ ، وَهَذَا — وَإِنْ كَانَ فِي عِلْمِ السَّمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ — لَكِنَّهُ
كَانَ عَلَى حَيَاةِ النَّاسِ جَدِيدًا لَمْ يَقَعَ ، وَكَانَ لَا بَدَّ أَنْ يَلْقَنُوهُ بَيَانَهُ مَعَ
زَمَانِهِ وَأَوَانِهِ .

وَهَكَذَا لَمْ تَكُنِ الرِّسَالَةُ كَلِمَةً سَاعَتَهَا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ كَلِمَاتُ أَعْوَامٍ
ثَمَانِيَةِ عَشَرَ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ كُلُّهَا فِي عِلْمِ السَّمَاءِ ، وَفِي اللَّوْحِ
الْمَحْفُوظِ ، وَلَكِنَّهَا نَزَلَتْ إِلَى عِلْمِ النَّاسِ مَعَ زَمَانِهَا وَأَوَانِهَا .

لِهَذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ مُنْجِمًا ؛ وَلَقَدْ خَالَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ دَعْوَةَ الرَّسُولِ
إِلَيْهِمْ كَلِمَةٌ ، وَأَنَّ صَفْحَتَهُ مَعَهُمْ صَفْحَةٌ ، وَفَاتَهُمْ أَنَّ الدَّعْوَةَ مَعَهَا خَطَوَاتٌ ،
وَأَنَّ هَذِهِ الْخَطَوَاتُ مَعَهَا جَدِيدٌ ، عَلَى عِلْمِهِمْ لِأَعْلَى عِلْمِ السَّمَاءِ ، وَمَا أَحْوَجُهُمْ
مَعَ كُلِّ جَدِيدٍ إِلَى مَزِيدٍ ، وَمَنْ أَجَلُ هَذَا الَّذِي فَاتَهُمْ اسْتَنْكَرُوا أَنَّ يَنْزَلَ
الْقُرْآنُ مُنْجِمًا وَقَالُوا : «لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» (١) ، وَكَانَ
جَوَابُ السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ «كَذَلِكَ لَنُثَبِتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا» (٢) ، أَيْ :

(١) الفرقان : ٣٢ .

(٢) الفرقان : ٣٢ .

جعلناه بعضه في إثر بعض ، منه منازل ابتداء ، ومنه منازل في عقب واقعة أو سؤال ، ليكون في تنابعه مع الأحداث وماتشيره من شكوك ، ما يرد النفوس إلى طمأنينة ، والأفئدة إلى ثبات ۞

وإنك لو تتبععت أسباب النزول في القرآن ، ومواقع الآيات ، لتبينت أن رسالة الرسول لم تكن جملة واحدة ، ليكون القرآن جملة واحدة ، بل كانت أحداثاً متلاحقة تقتضي كلمات متلاحقة .

فلقد نزلت آية الظهار في سلمة بن صخر ، ونزلت آية اللعان في شأن هلال بن أمية ، ونزلت آية حد القذف في رُمة عائشة ، ونزلت آية القبلة بعد الهجرة ، وبعد أن استقبل المسلمون بيت المقدس بضعة عشر شهراً ، ونزلت آية اتخاذ مقام إبراهيم مصلى حين سأل عمر الرسول في ذلك ؛ كذلك كانت الحال في الحجاب ، وأسرى بدر ، وغير ذلك كثير ، فكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات ، وعشر آيات ، وأكثر وأقل ، وقد صح نزول عشر آيات في قصة الإفك جملة ، كما صح نزول عشر آيات من أول « المؤمنين » جملة ، وصح نزول « غير أولى الضرر » (١) وحدها ، وهي بعض آية ، وكذا « وإن خفتم عيلة » (٢) ، إلى آخر الآيات ، وهي بعض آية ، نزلت بعد نزول أول الآية .

(١) النساء : ٩٤ .

(٢) التوبة : ٢٩ .

٩ - الوحي ونزول القرآن على سبعة أحرف

وهذا الوحي أُلهم الرسول معناه ، كما أُلهم لفظه ، فهو بمعناه ولفظه من صنع السماء ، والرسول ناطق بلسان السماء ، يُملئ على قومه ما أَمَلته السماء ، يصور ما تصور في وعيه ، وينطق بما أنطقته السماء ، تُفيض عليه السماء فإذا هو قد خلص لهذا الفيض بكلياته ، وإذا هو إشعاع لهذا الفيض يصدر عنه ويُشكّل جرسه ، فإذا ما انفصل عنه هذا الفيض عاد يُصدر عن نفسه ، يَطُوع له نُطقه .

ولسان الرسول عربي ، ولهذا جرى القرآن على لسانه عربياً ، وإذا كان القرآن لسان السماء جرى على لسان الرسول مُبيناً ، إلى جريانه عربياً ، يمثل أعلى ما ينتظمه اللسان العربي من لغات ، وأحوى ما يجمع من لهجات ، وكانت لغة مضر أعلى ما يجرى على لسان قريش وأحواه ، فنزل بها القرآن ، وفي هذا يقول عمر : نزل القرآن بلغة مضر . وكانت لغة مضر هذه تنتظم لغات سبعة لقبائل سبع ، هم : هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبة ، وتيم الرباب ، وأسد بن خزيمة ، وقريش .

ولقد مثل القرآن هذه اللغات السبع كلها مفرقة ، لكل لغة منه نصيب . وهو أولى الأقوال بتفسير الحديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» .

١٠ - إسم كتاب الله

ولقد سَمَّى الله ما أنزله على رسوله : قرآنا ، وكتاباً ، وكلاماً ، وفرقاً ، وذكرًا ، وقولاً .

وقد أنهاها بعضهم إلى نيف وتسعين اسماً ، وجعلها بعضهم خمسة وخمسين اسماً ، وأكثر ماذكروه يعد من قبيل الصفات ، من ذلك . الهادى ، والمتشابه .

وكان أكثر هذه الأسماء دوراناً هو لفظ القرآن ، فقد جاء في نحو من سبعين آية ، وكان في كلها صريحاً في اسميته ومدلوله الخاص . من أجل ذلك كُتبت لهذا اللفظ الغلبة على غيره ، وكان هذا الاسم الغالب لكتاب الله الذي جاء به محمد ، وحفظه عنه المسلمون .

ويؤثر عن الشافعى أنه قال : القرآن ، اسم على غير مشتق ، خاص بكلام الله ، فهو غير مهموز ، لم يؤخذ من قراءة ، ولكنه اسم لكتاب الله ، مثل : التوراة ، والإنجيل .

ويقول الزجاج : إن ترك الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمز إلى الساكن الصحيح قبلها .

والقائلون بالهمز مختلفون ، وأوجه ما في خلافهم رأيان :

أولهما : أنه مصدر لقرأت ، مثل : الرجحان ، والغفران ، سمي به الكتاب المقروء ، من باب تسمية المفعول بالمصدر .

والرأى الثانى : أنه وصف على : فُعلان ، مشتق من القَرء ، بمعنى الجمع .

وأما تسميته بالمصحف ، فكانت تسمية متأخرة ، جاءت بعد جمع القرآن وكتابته ، وكانت من وضع الناس . فإنهم يحكون أن عثمان ، حين كتب المصحف ، التمس له اسماً فانتهى الناس إلى هذا الاسم . غير أن هذا يكاد يكون مردوداً ، فلقد سبق أن علمت أن ثمة مصاحف كانت موجودة قبل جمع عثمان ، هى : مصحف على ، ومصحف أبي ، ومصحف ابن مسعود ، ومصحف ابن عباس .

والمصحف : هو الجامع للمصحف المكتوبة بين الدفتين .

ويقال فيه : مُصحف ، ومِصحف ، بضم الميم وكسرها ، مع فتح الحاء ، والضممة هى الأصل ، والكسرة لاستثقال الضمة ، فمن ضم جاء به على أصله ، ومن كسر فلاستثقال الضمة .

١١- جمع القرآن

ولقد مات رسول الله والقرآن كله مكتوب على العُصْب - جريد النخل - واللِّخَاف - صفائح الحجارة - والرِّقَاع ، والأَدِيم ، والأَكْتاف - عِظام الأَكْتاف - والأَقْتَاب - ما يوضع على ظهور الإبل - كما كان محفوظاً في صدور الرجال يحفظه حَفْظَةً من المسلمين .

وقبل أن يَقْبِضَ الله رَسولَه إِلَيهِ عارض الرسولُ ما أنزله عليه ربُّه بُسُورَه وآيَاتِه على ما حفظه عنه حَفْظَةً المسلمين ، فكان ما في صُذور الحَفْظَةِ صورَةً مما كان في صَدْر الرسول .

وكان لابد لهذا المكتوب على الرِّقَاع وغيرها من أن يُعَارَضَ على المحفوظ في الصدور ، ليخرج من بينهما كتاب الله في صورة مقروءة . كى يفيد منه الناس جميعاً على تعاقب الأزمان ، فما تُغْنِي الرقاع ، ثم هى عُرضة بَلَى ، وتشتت ؛ وما يُغْنِي الحَفْظَةُ ، وهم إلى فناء ، والناقلون عنهم ليس لهم مِيزة المعاصرة .

ويُحَرِّكُ الله المسلمين هذه الحسنة حين استَحَرَّ القَتْلُ يوم اليامة بقرآء القرآن ، فَيَخَفُّ عمر بن الخطاب إلى أبي بكر ، وكان عندها خليفة ، وكان الذى استخفَّ عُمَرَا إلى أبي بكر فزعُه من أن يتخطَّف الموت القرآء في مواطن أخرى ، كما تخطفهم في ذاك الموطن - أعنى اليامة - فيضيع على المسلمين جُمَاع دينهم ، ويعزَّ عليهم كِتَابُهم .

وحين جلس عمر إلى أبي بكر أخذ يُناقشه فيما أتى إليه من جمع القرآن ، بعد أن بسط السبب الحافز ؛ وتلبث أبو بكر يراجع نفسه ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت ، وكان من كُتّاب الوحي ، كما مرّ بك ، وحضر زيد مجلس أبي بكر وعمر ، وسمع منهما ما هما فيه ، فإذا هو معهما في الرأى ، وإذا أبو بكر حين يجد من زيد حُسن الاستجابة يتجه إليه يقول : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ، فتتبع القرآن اجمعه .

ومضى زيد يتتبع القرآن يجمعه ويكتبه ، وكان زيد حافظًا ، فيسرّ عليه حفظه عبثه شيئًا ، ولكنه كان إلى هذا لا يقنع في إثبات الآية يُختلف فيها إلا بشهادة .

واجتمعت هذه الصحف في بيت أبي بكر حياته ، ثم في بيت عمر حياته .

١٢- مصحف عثمان

وكما حُرِّكت مِخْنَةُ اليَمامةِ عمرَ إلى حَسنة ، حُرِّكت مِخْنَةُ أُخْرَى - بعد مقتل عُمر - عثمانَ إلى حَسنة ، فقد قدم حذيفةُ بن الِيارِث من حرب أرمينية وأذربيجان على عثمانَ فَرَعًا من اختلاف المسلمين في قِراءة القرآن ، يقول لعُثمان : أدرك الأُمَّة قبل أن يَخْتَلِفُوا .

وكما استجاب أبو بكر إلى عُمر استجاب عثمانُ إلى حذيفة ، فأرسل عثمانَ يطلب المصحفَ من عند حفصة بنت عمر ، وزوج النبي . وأرسلت حفصة بالمصحف إلى عثمان ، وجمع عثمانُ إليه زيدَ بن ثابت ، وعبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وكلهم من كُتَّاب الوحي ، وأمرهم بنسخ هذه المصحف . فكتبوا منها سبع مصاحف . ثم رَدَّ عثمانُ المصحفَ (١) إلى حفصة ، فلم تزل عندها حتى أرسل مروان بن الحكم بن أبي العاصي فأتخذها فحرقها ، كما ذكر أبو بكر السَّجِسْتَانِي (٢) .

ويقول أبو بكر السَّجِسْتَانِي في مكان آخر بسند متصل ، عن سالم ابن عبد الله : إن مروان كان يرسل إلى حفصة يسأَلُها المصحفَ التي كتب فيها القرآن ، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها . قال سالم : فلما

(١) ويقال إنه نسخ من المصحف أربعة مصاحف أرسلها إلى البصرة والكوفة والشام واحتفظ بالرابع في المدينة .
(٢) المصاحف للسَّجِسْتَانِي (ص : ١٠) .

توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر :
ليرسلن إليه بتلك الصحف . فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر ، فأمر بها
مروان فشقت . فقال مروان : إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحُفظ
بالمصحف فخشيت إن طال بالناس زمانٌ أن يرتاب في شأن هذه الصحف
مرتاب . أو يقول إنه قد كان شيء منها لم يكتب (١) .

ولا ندرى إلى أى حد كان توفيق مروان فيما فعل ، ولكنه ، وهو
الرجل الذى كان معاصراً لما وقع ، كان عليه أن يطمئن إلى أن الأمر
قد تم على أحسن ما يكون دقة وضبطاً ؛ ومانظنه غاب عنه كيف احتاط
عثمان لذلك ، ومانظنه إلا كان شاهد عثمان وهو يخاطب الناس يناشدهم
أن يأتوه بما معهم من كتاب الله ، وكان عهدهم بالنبي قريباً ، إذ لم يكن
مضى على وفاته أكثر من ثلاث عشرة سنة . ومانظن الناس إلا
قد وفوا لعثمان ، وجاءه كل رجل بما كان عنده ، فلقد كان الرجل يأتيه
بالورقة والأديم فيه القرآن .

ولقد جمع من ذلك عثمان الشيء الكثير . وما وقف عثمان عند هذه ،
بل لقد دعاهم رجلاً رجلاً فيناشده : لسمعت رسول الله ، صلى الله عليه
وسلم ، وهو أملاه عليك ؟ فيقول الرجل : نعم . حتى إذا فرغ من ذلك
قال : من أكتب الناس ؟ فقال الناس : كاتب رسول الله زيد بن ثابت ،
قال عثمان : فأى الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص - وكان سعيد
أشبههم لهجة برسول الله - قال عثمان : فليُمل سعيد وليُكتب زيد .

(١) المصاحف (٢٤ - ٢٥) .

هذا كله فعله عثمان ، وفعل إلى جانبه الاستثناس بالصحف التي تمّ جمعها في عهد أبي بكر ، وشارك فيها عمر ، والتي كانت عند حفصة . تلك الصحف التي مثلت المصحف الأول المعتمد .

من أجل هذا لم يختلف زيد وسعيد في شيء ، ووجدوا ما اجتمع لهما من قبل على يد أبي بكر وعمر هو هو الذي جمعه عثمان ثانية واستحلف الناس عليه .

ويحكى المؤرخون أن زيدا وسعيدا لم يختلفا إلا في حرف واحد في سورة البقرة ، فقال أحدهما «التابوت» وقال الآخر «التابوه» واختيرت قراءة زيد بن ثابت ، لأنه كان كاتب الوحي .

وأرسل عثمان ستاً من هذه المصاحف إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة ، وحبس مصحفاً بالمدينة ، وأمر عثمان فحرق ما كان مخالفاً لمصحفه .

وقد مرّ بك أن علي بن أبي طالب كان له مصحف باسمه ، أعنى كان إليه جمعه ، وأنه بعد موت النبي كان قد أقسم ألا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ، ففعل .

وينقل أبو بكر السجستاني (١) بسند متصل عن أشعث ، عن ابن سيرين ، أنه حين تخلف عن بيعة أبي بكر أرسل إليه أبو بكر يقول له : أكرهت إمارتي يا أبا الحسن ؟ فقال علي : لا والله ، إني أقسمت ألا أرتدي برداء إلا لجمعة . فبايعه ثم رجع .

(١) المصاحف (ص : ١٠) .

ثم يقول السجستاني : لم يذكر «المصحف» أحد إلا أشعث ، وهولين الحديث . وإنما : حتى أجمع القرآن ، يعني أتم حفظه .

غير أن ابن النديم - فيما نقلت إليك عنه قبل - يذكر أنه رأى عند أبي يعلى حمزة الحسني مصحفًا سقطت منه أوراق بخط علي بن أبي طالب ، يتوارثه بنو الحسن ، ثم أورد ترتيب السور فيه ، وقد نقلناها لك فيما سبق .

ولقد كان إلى مصحف علي مصاحف أخرى مرت بك ، هي مصحف أبي ، ومصحف ابن مسعود ، ومصحف ابن عباس ، وكان ثمة مصاحف أخرى هي : مصحف موسى الأشعري ، ومصحف للمقداد بن الأسود ، ومصحف لسالم مولى أبي حذيفة .

ولقد كانت هذه المصاحف موزعة في الأمصار ، فكان أهل الكوفة على مصحف ابن مسعود ، وأهل البصرة على مصحف أبي موسى الأشعري ، وأهل دمشق على مصحف المقداد بن الأسود ، وأهل الشام على مصحف أبي بن كعب .

وكان ثمة خلاف بين هذه المصاحف ، وهذا الخلاف هو الذي شهد به حذيفة حين كان مع الجيش في فتح أذربيجان . وهذا الخلاف هو الذي فزع من أجله عثمان فنهض يجمع أصول القرآن ، ويجمع إلى هذه الأصول الحفظة الموثوق بهم .

فنحن الآن بين مراحل ثلاث مرّ بها تدوين المصحف :

أولى هذه المراحل تلك التي كانت في حياة النبي ، صلى الله عليه وسلم ،

فلقد كان من حوله كُتّابه يكتبون ما يملئ عليهم ، وكان الرسول حريصاً على ألا يُكْتَبَ عنه غير القرآن ، حتى لا يلتبس به شيء آخر . ويروون عنه ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمححه .

ولم يترك رسول الله دنياه إلى آخرته إلا بعد أن عارض ما في صدره على ما في صدور الحَفَظَةِ الذين كانوا كثرة ، وحسبك ما يقال عن كثرتهم أنه في غزوة بئر معونة قُتل منهم - أي من القُرّاء - سبعون ، ثم حسبك عن كثرتهم أنه كانت منهم سيدة ، هي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله يزورها ويُسميها الشهيدة ، وكانت قد جمعت القرآن ، وقد أمرها رسول الله أن تؤم أهل دارها (١) .

ثم حسبك دليلاً على أن القرآن كُتب في حياة الرسول ، وأنه كُتب في صحة وضبط ، مارواه البراء مع نزول قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » (٢) : قال الرسول : ادع لي زيدا ، وليجئ باللوح والدواة والكتف ، ثم قال : اكتب « لا يستوى » ، أي إن الرسول كان يملئ على كاتبه لساعته .

ثم لعلك تذكر في إسلام عمر أن رجلاً من قريش قال له : أختك قد صيأت - أي خرجت عن دينك - فرجع إلى أخته ودخل عليها بيتها ، ولطمها لطمه شجَّ بها وجهها ، فلما سكت عنه الغضب نظر فإذا صحيفة في ناحية البيت فيها « بسم الله الرحمن الرحيم . سَبَّحَ لله ما في

(١) الطبقات الكبرى ، لابن سعد .

(٢) النساء : ٩٤ .

السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (١) . واطلع على صحيفة أخرى فوجد فيها «بسم الله الرحمن الرحيم . طه ما أنزلنا عليك القرآن» (٢) فأسلم بعد ما وجد نفسه بين يدي كلام معجز ليس من قول بشر .

فهذه وتلك تدلانك على أن الكتاب كانوا يكتبون بإملاء الرسول ، وأن هذا المكتوب كان يتناقله الناس .

والثانية من تلك المراحل ما كان من عمر مع أبي بكر حين استَحَرَّ القتل بالقراء في اليمامة ، وما انتهى إليه الرأي بين أبي بكر وعمر في أن يَكِلَا إلى زيد بن ثابت جمع المصحف ، لتكون معارضة بين ما هو مكتوب في الألواح وبين ما هو محفوظ في الصدور ، قبل أن تأتى المواقع على حَفَظَةِ القرآن ، فمما من شك في أن الاثنين يُكْمَل أحدهما الآخر ، لمن أراد أن يبلغ الكمال والدقة والضبط .

وما يمنع من هذا الذى فُكِّر فيه عمرُ أن يكون هناك جمع سابق على يد نفر من الصحابة ، مثل مافعل على ، ومثل مافعل ابن مسعود ، ومثل مافعل ابن عباس ، ومثل مافعل غيرهم .

وما كان هذا يغيب عن عمر ، ولكن كان ثمة فرق بين ما فكر فيه عمر وما سبق بعض الصحابة به ، فلقد كان رأى عند عمر أن يبادر في ظل وجود القراء إلى إيجاد مصحف رسمى يصدر بتكليف من الخليفة ، والخليفة أقوى على حشد الجهود العظيمة لهذا العمل العظيم .

(١) الحديد : ١ .

(٢) طه : ١ .

ولقد أحس زيد بثقل المهمة التي أرادها عُمر ، وأرادها معه أبو بكر ، فأبو بكر وعُمر لم يريداهما عملاً فردياً يحمل عبئه فرداً واحداً ، وإنما أراداهما عملاً جماعياً تحمل عبئه الخلافة ، وباسم الخلافة يصدر .
من أجل ذلك قال زيد : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليّ مما كان أمروني به من جمع القرآن .

ومن أجل ذلك مضى زيدٌ يتحرى ، لم يكتف بما في صدره ، وما بين يديه ، بل تلمس آيةً يفقدها فوجدتها عند رجل من الأنصار فدونها ، وهى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » (١) .

ومن أجل ذلك قال أبو بكر لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت :
اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه .

ومن أجل ذلك لم يقعد زيدٌ عن السعى ليجد آخر المطاف آخر سورة التوبة مع خزيمه بن ثابت .

إذن فلقد كان مصحف أبي بكر وعمر أولَ مُصحفٍ رسمى ، جمعه زيد بن ثابت لهما ، فى ظل هذا التحرى الدقيق ، الذى كان أبو بكر وعمر من ورائه . غير أن هذا المصحف الرسمى لم يأخذ طريقه الرسمى إلى الأمصار ، ولعلّ مقتل عمر هو الذى آخر ذلك .

والمرحلة الثالثة والأخيرة ، هى المرحلة التى تمت على يد عثمان ، وكانت تتمةً للمرحلة الرسمية التى بدأت فى عهد أبي بكر ، وشاركه فيها عمر ،

(١) الأحزاب : ٢٣ .

فلقد وقع الذي كان يخشاه عمر ، والذي فكّر من أجله في هذا الجمع الرسمي ، وعَجَلَ به القتلُ عن أن يَمْضِيَ فيه إلى آخره .

فلقد مر بك كيف استقلَّ كلُّ مِصْرٍ بمصحف ، وكانت مصاحف فردية ، لم يجتمع لها ما اجتمع لمصحف أبي بكر الذي انتهى إلى حفصة ، ثم انتهى إلى عثمان ، من جهد جماعي مُستوعب ، ولقد سعى «عليٌّ» جهده ، وسعى «أبيّ» جهده ، وسعى «ابن عبّاس» جهده . ولكن هذه الجهود لو تلاقت كما تلاقت حياة أبي بكر وعمر لخضعت لتعديل كثير ، ودلينا على ذلك أنه لما خرج إلى الأمصار مُصحف عثمان دان الناس لتحريره قبل أن يدينوا لسلطان الخليفة ، وما يستطيع أحد أن يظن بالمسلمين اللين والضعف على أن يقفوا لأقوى الخلفاء يُلزمونه رأبهم ، إن كانوا يعرفون أنه الحق ، ولكن انصياع المسلمين في الأمصار كلها لمصحف عثمان ، وما كان عثمان بالعنيف ، يدلك على أن المصحف العثماني خرج عن إجماع اطمأنت القلوب إليه .

ويروى أبو بكر السجستاني بسند متصل عن «علي» ، في المصاحف وحرّق عثمان لها : «لو لم يصنعه عثمان لصنعتة» (١) .

ولقد كان «عليٌّ» صاحب مصحف اختفى بظهور مصحف عثمان ، ولكن هذا لم يمنعه من نصرته الحق الذي جاهد من أجله حياته كلها . والذي قبله «عليٌّ» قبله «ابن مسعود» ، ولكن بعد لأى ، وقبله بعد هذين كثيرون من الصحابة .

(١) المصاحف (ص : ١٢) .

يرزى أبو بكر السجستاني بسند متصل عن مصعب بن سعد ، قال :
أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف ، فأعجبهم ذلك
ولم ينكر ذلك منهم أحد (١) .

وما أجل هذه التي فعلها عثمان ، وحسبه عنها ما يرويه أبو بكر
السجستاني بسند متصل عن عبد الرحمن بن مهدي ، يقول : خصلتان
لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر : صبره نفسه حتى قتل مظلوماً ،
وجمعه الناس على المصحف (١) .

وحسبك أن تعلم أن الحال في اختلاف الناس لم تكن أيام عثمان في
الأمصار دون المدينة ، بل شملت المدينة أيضاً ، فلقد كان المعلمون فيها
لكل معلم قراءته ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، فكان هذا لعثمان ،
إلى ما بلغه من حذيفة ، مما أفرعه وجعله يقوم بين الناس خطيباً ويقول :
أنتم عندي مختلفون فيه فتلحنون ، فمن نأى عني من الأمصار أشد فيه
اختلافاً وأشد لحناً ، اجتمعوا يا أصحاب محمد واكتبوا للناس إماماً .

من أجل هذا سُمي مصحف عثمان : الإمام .

وقد أرسل عثمان من هذا المصحف نسخاً للأمصار - كما مر بك -
وأمر بأن يحرق ما عداها .

ويحكى ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار ، وهو
يصف مسجد دمشق : « وإلى جانبه الأيسر المصحف العثماني بخط أمير
المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه » (٢) .

(١) المصاحف (ص : ١٨) .

(٢) المسالك (١ : ١٩٥ ، طبعة دار الكتب المصرية) .

ومعنى هذا أن هذا المصحف كان بدمشق حياة العمرى ، أى إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، فلقد كانت وفاة العمرى سنة ٧٤٩ هـ .

ويرجع المتصلون بالتراث العربى أن هذا المصحف هو الذى كان فى دار الكتب بمدينة ليننجراد ، ثم انتقل منها إلى إنجلترا ، ولا يزال بها إلى اليوم .

ويروى السفاقسى فى كتابه « غيث النفع » « ورأيت فيه - يعنى مصحف عثمان - أثر الدم وهو بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة » (١) .

ولقد كان فى دار الكتب العلوية فى النجف مصحف بالخط الكوفى مكتوب فى آخره : كتبه على بن أبى طالب فى سنة أربعين من الهجرة ، وهى السنة التى توفى فيها على .

(١) غيث النفع فى القراءات السبع (ص : ٢٣٠) .

(تأريخ القرآن)

١٣ - كتب المصاحف

ولقد كتب نفر من السلف كتباً عرضوا فيها للمصاحف القديمة التي سبقت مصحف عثمان ، والتي جاء مصحف عثمان مُلغياً لها ، نذكر منها :

١ - اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق ، لابن عامر ، المتوفى سنة ١١٨ هـ .

٢ - اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة ، عن الكسائي ، المتوفى سنة ١٨٩ هـ .

٣ - اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف ، للفراء ، المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

٤ - اختلاف المصاحف لخلف بن هشام ، المتوفى سنة ٢٢٩ هـ .

٥ - اختلاف المصاحف وجامع القراءات ، للمدائني ، المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

٦ - اختلاف المصاحف لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني ، المتوفى سنة ٢٤٨ هـ .

٧ - المصاحف والهجاء لمحمد بن عيسى الأصبهاني ، المتوفى سنة ٢٥٣ هـ .

٨ - المصاحف لأبي عبد الله بن أبي داود السجستاني ، المتوفى سنة ٣١٦ هـ .

٩- المصاحف لابن الأنباري ، المتوفى سنة ٣٢٧ هـ .

١٠- المصاحف لابن اشتة الأصبهاني ، المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

١١- غريب المصاحف للوراق .

وترى من هذا العرض لهذه الكتب ومؤلفيها أن المصحف الإمام لم يبلغ المصاحف التي جاء ليبلغها إلغاء تاماً ، وأن هذه المصاحف بخلافها على المصحف الإمام ظلت حية ، إن لم تكن كتابةً فحفظاً ، وإن كنا نرجح الأولى . وأول كتاب في هذا كان لابن عامر - كما ترى - وابن عامر كانت وفاته سنة ١١٨ هـ ، أي بعد مقتل عثمان بما يقرب من ثلاث وثمانين سنة ، فلقد كانت وفاة عثمان في الخامسة والثلاثين من الهجرة .

ولقد انتهى إلينا من هذه الكتب كلها كتاب المصاحف لأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني . وقد نقلت منه نصوصاً مرت بك ، وأشارت إلى مواضعها من النسخة المطبوعة من هذا الكتاب .

ويكاد يكون كتاب أبي بكر السجستاني جامعاً لكلام من سبقوه ، لتأخره في الزمن عنهم ، وما أظن من بعده أضاف كثيراً . أعني بهذا أن كتاب أبي بكر السجستاني يكاد يمثل لنا هذا الخلاف كله .

وإني لأعدّ إقدام هؤلاء النفر من الساف على مثل هذا التأليف إحياءً لخلاف حاول الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان - أو قل الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ - أن يضعوا له نهاية ، بالمحاولة الأولى التي تمت على يد أبي بكر وعمر ، ثم بالمحاولة الثانية التي تمت

على يد عثمان وأقره عليها على ، وشارك فيها كثير من الصحابة ، ومنهم من كان صاحب مصحف مثل «أبي» .

وعثمان لم يُقدم على ما فعل إلا حين فزعه الخلاف ، ولم يُمض ما أقدم عليه إلا بعد أن اطمأنت نفسه إلى ما انتهى إليه ، ولم يطمئن إلى اطمئنانه إلا بعد أن آزرته عليه الكثرة ، وبعد هذا كله وقف عثمان موقفه الحازم القاطع فألزم الأمصار بالمصحف الإمام ، ثم حرق ماعده ، ومعنى هذا أنه لارجعة إلى هذا الخلاف ، ولا سبيل إلى الرجعة إليه ، إذ لو صح أن ثمة شك قد انتهى إليه عثمان لما كان منه هذا القرار الحازم القاطع .

ولعلك تذكر ما كان من مروان من إحراقه مصحف حفصة الذي كان مرجعاً من مراجع المصحف الإمام . ولقد كان سنده ، غير أنه أراد من هذا ألا يكون ثمة رجعة إلى الوراثة تُثير هذا الخلاف في كتاب قال فيه تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (١) .

وبعد ما يقرب من قرن إلا قليلاً يطالعنا ابن عامر بمؤلفه في اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق ، أو قل : بعد أن اختفى جيل القراء الأول والثاني والثالث من الميدان ، وبعد أن نفى أصحاب المصحف الإمام أيديهم من أدلتهم واطرحوها وأحرقوها ، بعد هذا كله تثار قضية لا تكافؤ فيها ، أدلتها الخلافية قطع فيها بالرأى ، واستبعدت شىء لا يستقيم وأقيم مقامه شىء مُستقيم .

وأنا من أجل هذا من القائلين - لآخوفاً - بأن إثارة مثل هذا ليست نوعاً من الدراسة ، فتلك دراسة بتراء ، لا تملك أسلوبها العلمى الصحيح . ولقد كنّا نرحب بها لو كانت شيئاً جديداً لم تعرفه البيئة حين حكمت فى أمره ، بل لقد كان شيئاً معهوداً للبيئة تعرفه وتعرف أكثر منه ، ولقد حكمت فيه وفرغت منه ، فإرادته بعد هذا ليكون شيئاً يُدرس نوعٌ من الكيد ، ولو كنت أملك لعفيت آثاره كما عفى عثمان آثاراً مثله ، ولن أكون معها متجنّياً أو متعسفاً أو خائفاً ، بل أكون مع الحزم الذى اتصف به عثمان ، وناصره عليه «على» ، واجتمع معه فى الرأى عليه اثنا عشر صحابياً ، جمعهم عثمان لهذا العمل الجليل .

وما أصدقها كلمة جرت على لسان أبى بكر السجستانى فى ختام عرضه لمصحف أبى بن كعب ، حين يقول : لا نرى أن يُقرأ القرآن إلا بمصحف عثمان الذى اجتمع عليه أصحاب النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فإن قرأ إنسان بخلافه فى الصلاة أمرته بالإعادة (١) .

هذا على الرغم من أن أباً بكر هذا كان تُكأة المستشرقين ، لأنه واحد من هؤلاء الذين أرادوا أن يوقفوا الفتنة بأيديهم وألسنتهم . والمستشرقون من أجل هذا لا يقبلون ما يُجرّح به أبو بكر ، فلقد كذبه أبوه فى أكثر من حديث ، وقال عنه الدارقطنى : إنه كثير الخطأ فى الكلام على الحديث ، غير أن هذا لم يرض المستشرقين ، كما قال «جفرى» فى مقدمته لكتاب «المصاحف لأبى بكر السجستانى» ، فلقد قال جفرى : وهذه تُهمة لم يرض بها المستشرقون لأنها لم تقم على حجة

(١) المصاحف (٥٣ - ٥٤) .

من الأحاديث التي رويت عنه ، ولأنهم اختبروا أحاديثه على قاعدة البحث الجديدة فوجدوها صحيحة وصادقة (١) .

ياسبحان الله ! فلقد أصبح المستشرقون أفقه بعلم الحديث من واضعيه ، وأصبحت لهم طرق في الرواية غابت عن علماء المحدثين ، منها أنهم لا يأبهون بتكذيب الأب لابنه ، مادام الابن يجمع لهم ما شذ ولم يرّضه أهل النقل .

وما أحب أن أخوض في عرض المصاحف المختلفة التي ساق أبو بكر السجستاني منها نماذج مختلفة (٢) ، فذلك شيء قد مات - كما قلت لك - والنابش عنه لا يريد علماً ولا حقاً ، وإنما يريد كيداً وشقاقاً ، غير أني لا أحب أن أسكت عن أشياء ثلاثة أثارها كتب المصاحف دون أن أعرضها وأذكر الرأي فيها :

أولها : ما يُعزى إلى عثمان بن عفان ، عن قتادة ويحيى بن يعمر ، من أنه ، رضى الله عنه ، لما رُفع إليه المصحف قال : إن فيه لحنًا وستقيمه العرب بالسننها .

وهذا الحديث لا يجب أن يمر دون أن يُضم إليه حديث ثانٍ يُعزى إلى عثمان أيضاً ، عن عكرمة الطائى ، يقول : لما أُنِيَ عثمان ، رضى الله عنه ، بالمصحف رأى فيه شيئاً من لحن ، فقال : لو كان المُملى من هذيل والكاثب من ثقيف لم يوجد فيه هذا .

ولقد مرّ بك أن عثمان اختار حين كتب مصحفه رجلين ، هما :

(١) مقدمة كتاب المصاحف (ص : ١٢) .

(٢) المصاحف (٥٠ - ٩١) .

زيد بن ثابت ، وكان أكتب الناس ، وسعيد بن العاصي ، وكان أفصح الناس وأشبههم لهجة برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وما كانت تغيب عن عثمان ، ولا عمَّن كانوا مع عثمان ، يوم شَمَّروا لكتابة المصاحف ، هذه الاختلافات في الرسم الإملائي التي ظهرت بعد كتابة المصحف ، وتمنى عثمان لو لم تكن حين قال : لو كان المملى من هذيل والكااتب من ثقيف لم يُوجد فيه هذا .

ثم كيف ترد هذه التي وردت في الحديث الأول عن عثمان ، وهو الذي كان من وراء من يكتبان ، يراجع ما يكتبانه حرفاً حرفاً ، وكامة كلمة ، ويصلح ما فاتهما . وما نظن عثمان ونى في هذا العبء ولا فتر ، وهو يعلم جدَّه وخطره ، وهو يعلم المتحفزين به من وراء ذلك ، على عمل حَمَل عبثه على الرغم منهم .

اللهم إن ثمة شيئاً لا ندفعه ، وهو ماجاء في المصحف الإمام من رسم قديم كان مظنة اللبس ، ورأى عثمان أن ألسنة العرب تُقيمه على وجهه ، وإن بدا على غير وجهه ، فلم يعرض له . ولعل هذا هو تفسير ماجاء على لسان عثمان في حديثه ، إن صح أنه له ، يؤيدنا على ذلك حديثه الثاني الذي عقبت به .

ويفسر هذا قول ابن اشته في كتابه « المصاحف » : جميع ما كتب خطأ يجب أن يقرأ على صحة لغته لاعلى رسمه ، وذلك في نحو « لا أوضعوا » و « لا أذبحنه » بزيادة ألف في وسط الكلمتين ، إذ لو قرى بظاهر الخط لكان لحناً شنيعاً ، يقلب معنى الكلام ويُخل بنظامه .

وزييده وضوحاً أبو بكر السجستاني من قبل ابن اشته حيث يقول

في كتابه المصاحف : هذا عندي يعنى : بلغتها - يريد معنى قوله
بألسنتها - وإلا لو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعاً
لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرءونه (١) .

ويؤيد هذا ما روى عن عمر بن الخطاب : «إنا لنرغب عن كثير
من لحن أبي . يعنى : لغة أبي » (٢) .

وثانيها : ما يعزى إلى عائشة ، يرويه هشام بن عروة ، عن أبيه ،
قال : سألت عائشة عن لحن القرآن : «إن هذان لساحران» (٣) ، وعن
قوله تعالى «والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة» (٤) ، وعن قوله تعالى :
«والذين هادوا والصابئون» (٥) ، فقالت : يابن أختي ، هذا عمل الكتاب
أخطئوا في الكتاب (٦) .

ومثل هذا الذى عُرِى لعائشة يُعزى لأبان بن عثمان ، يرويه الزبير
يقول : قلت لأبان بن عثمان : كيف صارت «لكن الراسخون في العلم
منهم المؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين
الصلاة والمؤتون الزكاة» ، ما بين يديها وما خلفها رفع وهى نصب ؟ قال :
من قبل الكتاب ، كتب ما قبلها ثم قال : ما أكتب ؟ قال : أكتب
«والمقيمين الصلاة» فكتب ما قبل له (٧) .

(١) المصاحف لأبي بكر السجستاني (ص : ٣٢) .

(٢) المصاحف لأبي بكر السجستاني (ص : ٣٢) .

(٣) طه : ٦٣ . (٤) النساء : ١٦٢ .

(٥) المائدة : ٦٩ . (٦) المصاحف : ٣٤ .

(٧) المصاحف (ص : ٣٣ - ٣٤) .

وَيَنْضِمُ إِلَى هَذَا مَا يُعْزَى إِلَى سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ : فِي الْقُرْآنِ
أَرْبَعَةُ أَحْرَفَ لَحْنٍ : « وَالصَّابِثُونَ » (١) ، « وَالْمَقِيمِينَ » (٢) ، « فَأَصْدَقَ
وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ » (٣) ، « إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ » (٤) .

وَقَبْلَ أَنْ أَقُولَ كَلِمَتِي أَحَبُّ أَنْ تَأْنَسَ مَعِيَ بِقَوْلِ عَالِمِ جَلِيلٍ مِنْ
عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ وَاللُّغَةِ ، وَمَا أَبْغَى أَنْ أَضْمَّ إِلَيْهِ غَيْرَهُ لِأَثْقَلِ عَلَيْكَ .

يَقُولُ الزَّمْخَشَرِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ كِتَابِهِ « الْكَشَافُ » (٥) :
« وَالصَّابِثُونَ » - الْمَائِدَةُ ، الْآيَةُ : ٦٩ - رَفَعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ ، وَالنِّيَّةُ بِهِ التَّأْخِيرُ
عَمَّا فِي حَيْزِ « إِنْ » مِنْ اسْمِهَا وَخَبَرِهَا ، كَأَنَّهُ قِيلَ : إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا
وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى حَكَمَهُمْ كَذَا وَالصَّابِثُونَ كَذَلِكَ . وَأَنْشَدَ
سَيَبُويَه (٦) شَاهِدًا لَهُ :

وإِلَّا فاعلموا أننا وأنتم بُغَاةٌ مابقينَا فِي شِقَاقِ
أَيَّ : فاعلموا أننا بُغَاةٌ وأنتم كذلك . فَإِنْ قُلْتَ : هَلَا زَعَمْتَ أَنْ ارْتِفَاعَهُ
لِلْعُطْفِ عَلَى مَحَلِّ « إِنْ » وَاسْمِهَا ؟ قُلْتَ : لَا يَصِحُّ ذَلِكَ قَبْلَ الْفَرَاغِ مِنْ
الْخَبَرِ ، لَا تَقُولُ : إِنْ زَيْدًا وَعَمْرُو مَنْطَلِقَانِ . فَإِنْ قُلْتَ : لَمْ لَا يَصِحُّ وَالنِّيَّةُ
بِهِ التَّأْخِيرُ ، فَكَأَنَّكَ قُلْتَ : إِنْ زَيْدًا مَنْطَلِقٌ وَعَمْرُو ؟ قُلْتَ : لِأَنِّي إِذَا

(١) الْمَائِدَةُ : ٦٩ .

(٢) النِّسَاءُ : ١٦٢ .

(٣) الْمَنَافِقُونَ : ١٠ .

(٤) طه : ٦٣ .

(٥) الْجُزْءُ الْأَوَّلُ (٦٦٠ - ٦٦١) طَبْعَةُ الْإِسْتِقَامَةِ .

(٦) الْكِتَابُ (١ : ٢٩٠) .

رفعته عطفاً على محل «إن» واسمها ، والعامل في محلها هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر ، لأن الابتداء ينتظم الجزأين في عملهما كما تنتظمهما «إن» في عملها . فلو رفعت «الصابئون» والمنوئ به التأخير بالابتداء ، وقد رفعت الخبر بإن ، لأعملت فيهما رافعين مختلفين . فإن قلت : فقلوه «والصابئون» معطوف لا بد له من معطوف عليه فما هو ؟ قلت : مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله «إن الذين آمنوا» ولا محل لها ، كما لا محل للتي عطف عليها ، فإن قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضللاً وأشدّهم غيًّا ، وما سُموا صابئين إلا لأنهم صبثوا عن الأديان كلها ، أى خرجوا ، كما أن الشاعر قدّم قوله «وأنتم» تنبيهاً على أن المخاطبين أوغل في الوصف بالبُغاة من قومه ، حيث عاجل به قبل الخبر الذى هو «بُغاة» ، لئلا يُدخل قومه في البغى قبلهم ، مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدماً . فإن قلت : فلو قيل : والصابئين وإياكم ، لكان التقديم حاصلًا ؟ قلت : لو قيل هكذا لم يكن من التقديم فى شيء ، لأنه لا إزالة فيه عن موضعه ، وإنما يقال : مقدم ومؤخر ، للمُزال لا للقارّ فى مكانه ، ومجرى هذه الجملة مجرى الاعتراض فى الكلام .

وقال الزمخشري (١) : «والمقيمين» (النساء : ١٦٢) نصب على المدح لبيان فضل الصلاة . وهو باب واسع . وقد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد ، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنًا فى خط المصحف ،

(١) الكشف (١ : ٥٩٠) .

وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ، ولم يعرف مذاهب العرب ومالهم في النصب على الاختصاص من الافتنان ، وغُبِّيَ عليه أن السابقين الأولين ، الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ، كانوا أبعدَ همّة في الغيرة على الإسلام ، وذَبَّ المطاعن عنه ، من أن يتركوا في كتاب الله ثلّة ليسُدا من بعدهم ، وخرقاً يرفُوه من لحق بهم .

وقيل : هو عطف على « بما أنزل إليك » أى يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة ، وهم الأنبياء . وفي مصحف عبد الله « والمقيمون » بالواو ، وهى قراءة مالك بن دينار ، والجحدريّ ، وعيسى الثقفى .

وقال الزمخشري (١) : « وأكن » - المنافقون : ١٠ - « عطفًا على محل « فأصدق » ، كأنه قيل : إن آخرتنى أصدق وأكن . ومن قرأ « وأكون » ، على النصب ، فعلى اللفظ . وقرأ عُبيد بن عمير : « وأكون » ، على : وأنا أكون ، عِدَّةٌ منه بالصلاح .

وقال الزمخشري (٢) : « إن هذان لساحران » - طه : ٦٣ - : « قرأ أبو عمر : إن هذين لساحران ، على الجهة الظاهرة المكشوفة . وابن كثير وحفص : إن هذان لساحران ، على قولك : إن زيد لمنطلق . واللام هى الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة . وقرأ أُبَيّ : إن ذان إلا ساحران . وقرأ ابن مسعود : أن هذان ساحران ، بفتح أن وبغير لام ، بدل من « النجوى » (٣) . وقيل فى القراءة المشهورة - وهو يعنى المصحف

(١) الكشاف (٤ : ٥٤٤) .

(٢) الكشاف (٣ : ٧٢٠) .

(٣) طه : ٦٢ : وأسروا النجوى .

الإمام - : إن هذان لساحران ، هي لغة بلحارث بن كعب ، جعلوا الاسم المثني نحو الأسماء التي آخرها ألف ، كعصا وسُعدى ، فلم يقبلوها في الجر والنصب . وقال بعضهم : «إن» بمعنى : نعم ، و«ساحران» خبر مبتدأ محذوف ، واللام داخلة على الجملة ، تقديره : لهما ساحران . وقد أعجب به أبو إسحاق .

انتهى كلام الزمخشري . وبودي أن أشير قبل أن أمضي في حديثي إلى أن في كلامه دليلاً جديداً يؤيدني فيما اخترت من قبل عن القراءات السبع في القرآن ، وأنها لغات العرب جاءت مبثوثة في القرآن ، وبها كلها يتجه الكلام .

أما عن حديثي الذي أحب أن أمضي فيه :

١- فأما ما جاء منسوباً إلى عثمان فقد قدّمت دفعي له وتأويله ، ويحضرني هنا بعد عرض آراء الزمخشري أن اللحن الذي جاء على لسان عثمان مُرادٌ به : توجيه الكلام توجيهاً ليس على ظاهره ، وأن المراد بتقويم الألسنة أو اللغات له : بيان الوجه المراد معه . هذا إن صح مانسب إلى عثمان .

٢- وأما ما جاء منسوباً إلى عائشة ، فما أظن عائشة تسكت على خطأ الكتاب في كتاب الله ، وترضى به يشيع ويخرج عن المدينة إلى الأمصار ، ولم تكن بعيدة عن عثمان ولا عن الصحابة الكاتبين ، وما أظنها كانت أقلّ منهم حرصاً على سلامة كتاب الله . وحسبك ما قدمه الزمخشري في هذه .

٣- وأما عن تلك التي ينسبونها لأبان بن عثمان ، فلا أدري كيف جاءت على لسانه ، مع العلم بأنه ممن لم يشهدوا عصر التدوين ، ولا كان حاضراً ذلك ، فلقد كانت وفاته سنة ١٠٥ هـ ، وعثمان مات سنة ٣٥ هـ .

وبعد . فهذا الذي نسب إلى أبان استنباط لارواية مأثورة ، وهذا الاستنباط الذي استنبطه أبان لا يصح إلا عن مشاهدة ، أو سماع عن مشاهدة ، وكلاهما لم يتوفر لهذا الحكم .

وثالث الأشياء التي أردت ألا أسكت عنه : هو ما يعضوه أصحاب التوالمف فف المصاحف إلى الحجاج بن يوسف ، وأنه غير فف مصحف عثمان أحد عشر حرفاً ، وقد رواها أبو بكر السجستاني فف كتابه المصاحف مرتين .

الأولى يقول فيها : حدثنا عبد الله : حدثنا أبو حاتم السجستاني : حدثنا عباد بن صهيب ، عن عوف بن أبي جميلة : أن الحجاج ابن يوسف غير فف مصحف عثمان أحد عشر حرفاً (١) .

والثانية يقول فيها : قال أبو بكر - يعني نفسه - كان فف كتاب أبي : حدثنا رجل - فسألت أبي : من هو ؟ فقال : حدثنا عباد بن صهيب ، عن عوف بن أبي جميلة . أن الحجاج بن يوسف غير فف مصحف عثمان أحد عشر حرفاً (٢) .

وهذه هي الأحرف ، كما ذكرها أبو بكر السجستاني :

(١) المصاحف (ص : ٤٩) .

(٢) المصاحف (ص : ١١٧) .

١- كانت في البقرة «لم يتسن» فغيرها «لم يتسنه» - الآية :

. ٢٥٩

وأحب أن أعقب أن ابن مسعود قرأ «لم يتسن» والأصل فيها «يتسنن»، فقلبت ، لأن الثانية حرف علة ، كما في : تفضض ، وتفضي .
وقرأ حمزة والكسائي بحذف الهاء في الوصل ، على أنها هاء السكت .
وقرأ باقي السبعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف ، على أنها أصلية .
وقرأ أبي «لم يسنه» ، بإدغام التاء في السين .

٢- وكانت في سورة المائدة : «شريعة ومنهاجاً» فغيره «شرعة

ومنهاجاً» - الآية : ٤٨ .

وأحب أن أعقب أن هذه لم يقرأ بها أحد من القراء .

٣- وكانت في سورة يونس «هو الذي ينشركم» ، فغيره «هو الذي

يسيركم» - الآية : ١٠ .

وأحب أن أعقب أن «ينشركم» قراءة ابن عامر ، ويزيد بن القعقاع .

وينشركم ، أى : يحييكم .

٤- وكانت في سورة يوسف «أنا آتيكم بتأويله» ، فغيرها «أنا أنبئكم

بتأويله» - الآية : ٤٥ .

وأحب أن أعقب أن هذه لم يقرأ بها أحد من القراء .

٥- وكانت في سورة المؤمنين «سيقولون لله» فغيرها ، «سيقولون الله»

الآيتان : ٨٧ و ٨٩ .

وأحب أن أعقب أن الأولى هي القراءة المشهورة . وقرأً بالثانية
أبو عمرو ، ويعقوب .

٦ و ٧- وكانت في سورة الشعراء «من المخرجين» - الآية : ١١٦ -
فغيرها «من المرجومين» و «من المرجومين» - الآية : ١٦٧ - فغيرها
«من المخرجين» .

وأحب أن أعقب أن هذه وتلك هما القراءتان المشهورتان .
٨- وكانت في سورة الزخرف «معاشهم» ، فغيرها «معيشتهم» -
الآية : ٣١ .

وأحب أن أعقب أن هذه هي القراءة المشهورة ، ولم يقرأً بالأولى
أحد من القراء .

٩- وكانت في سورة الذين كفروا «ياسن» ، فغيرها «آسن» ،
الآية : ١٥ .

وأحب أن أعقب أن حمزة قرأ «ياسن» ، وقفًا لا وصلًا . وأن «آسن»
هي القراءة المشهورة .

١٠- وكانت في سورة الحديد «فالذين آمنوا منكم واتقوا» ، فغيرها
«وأنفقوا» - الآية : ٧ .

وأحب أن أعقب أن القراءة المشهورة «وأنفقوا» ، ولم يقرأً أحد من
القراء «واتقوا» .

١١- وكانت في سورة التكويد «وما هو على الغيب بظنين» ، فغيرها
«بضنين» - الآية : ٢٤ .

وأحب أن أعقب أن مكياً، وأبا عمرو، وعلياً، ويعقوب، قرءوا «بظنين»،
أى : متهم . وأن الباقين قرءوا «بضنين» ، أى : ببخيل .

هذه هى الأحرف التى يروى أن الحجاج غيرها فى مصحف عثمان .

وأحب أن أزيد الأمر وضوحاً ولا أتركه على إبهامه هذا الذى يثير
شكاً ، ويكاد القول فيه على ظاهره يُعطى للحجاج أن يُغير فى كتاب الله :

١- لقد رأيت كيف روى أبو بكر السجستاني هذا الخبر فى كتابه
«المصاحف» فى مكانين بسندين ، هما وإن اتفقا إلا أن ثانيهما رواه
أبو بكر فى أسلوب يهون فيه من شأن المُسند إليه الخبر .

٢- ولقد رأيت من هذا التعقيب الذى عقبنا به على هذه الأحرف .
أن ثمانية منها تحتمل قراءات ، وأن ما أثبتته الحجاج كان المشهور .

٣- ولقد رأيت أن ثلاثة منها لم يقرأ بها أحد من القراء ، وهى
«شريعة» التى غيرت إلى «شرعة» و«آتيكم» التى غيرت إلى «أنبئكم» ،
و«معيشتهم» التى غيرت إلى «معاشهم» .

وأحبك أن تعرف :

٤- أن الحجاج كان من حُفَاط القرآن المعدودين .

٥- وأن الحجاج كانت على يديه الجولة الثانية فى نَقْط المصاحف
وشكلها ، بعد أن كانت الجولة الأولى على يد الصحابة ، وكانت جولة
الصحابة بداية لم تشمل القرآن كله بل كانت نوعاً من التيسير .

يقول الداني (١) بسند متصل عن قتادة : بدؤوا فنقطوا ثم خمسوا
ثم عَشَرُوا - وهو يعنى الصحابة .

ثم يقول فى إثر هذا : هذا يدل على أن الصحابة وأكابر التابعين
هم المبتدئون بالنقط ورسم الخموس والعشور .

وفى الجولة الثانية خلاف ، فمن الرواة من يعزوها إلى أبى الأسود
الدؤلى ، بعد أن طلبها منه زياد .

ومنهم من يعزوها إلى يحيى بن يعمر العدوانى ، وكان ذلك عن
طلب الحجاج ، ويقول : إن هذا هو الأعرف .

ومانظن الحجاج - وهو الحافظ للقرآن - كان بعيداً عن يحيى
ابن يعمر ، كما لم يكن عثمان بعيداً عن زيد بن ثابت ، وسعيد .

وإذن نستطيع أن نقول :

١- إن هذه الأحرف الثلاثة التى لم يقرأ بها أحد لم تكن منقوطة
ولامشكولة ، فميزها النقط وبيّنها ، وكانت على السنة الناس كما كانت
على لسان الحجاج ، بدليل أنها لم ترد فى قراءة ، ولا أدرى كيف قامت
هذه دعوى .

٢- إن الأحرف الثمانية الباقية ، فيها قراءات ، كما مر بك ،
والمشهور منها ما يعزى إلى الحجاج أنه أثبتته .

(١) المحكم فى نقط المصاحف لأبى عمر عثمان بن سعيد الداني (ص :

ولكن من أنى لنا أن هذا الذى يقال إن الحجاج أثبته لم يكن ،
وإن رسم مصحف عثمان كان يحتمله ، وإن الحجاج لم يفعل غير أن
بينه وميزه .

يحدوني إلى هذا ما روى من أن عثمان حين كان يُعرض عليه المصحف
غَيَّر « لم يتسن » إلى « لم يتسنه » ، إذن فالذى يُعزى إلى الحجاج أنه فعله
عُزى إلى عثمان أنه فعله من قبله ، ولا يمنع أن يكون هذا كله - أعنى
الأحرف الثمانية - كانت مقروء مصحف عثمان ، وأن الحجاج حين نقط
وشكل ميز الرسم وبينه ، يستوحى فى ذلك من مقروئه ومقروء الناس
الذين يقرءون بقراءة مُصحف عثمان .

إذن فلا تغيير للحجاج فى كتاب الله .

ثم ما أهون مدلول مانسبوه إلى الحجاج ، وهل كان بعد هذا غير
تبين رسم وتميزه ، وما أظن الحجاج خرج فيها على مصحف عثمان
بقراءة أخرى ، بل أكاد أؤكد أنه التزم فيها مقروء مصحف عثمان ، وأنه
لم يفعل غير التمييز والتبيين ، بدليل تلك التى سقتها عن « لم يتسن »
و« لم يتسنه » ، وأن الحجاج فيما فعل كان حريصاً على أن يمكّن للمصحف
الامام ، وأن ينفى عنه ما عساه أن يكون دخل عليه من قراءات .

١٤ - القراءات

وقد مرَّ بك الرأى فى القراءات السبع ، ومعنى قوله ، صلى الله عليه وسلم : نزل القرآن على سبعة أحرف - أى : على سبعة أوجه من اللغات متفرقة فى القرآن (١) .

وروى عن عمر أنه قال : نزل القرآن بلغة مُضر .

وإذا رجعنا نُحصي قبائل مُضر وجدناها سبع قبائل ، وهى : هذيل ، وكنانة ، وقَيْس ، وضَبَّة ، وتيم الرِّباب ، وأسَد بن خُزيمة ، وقريش . كما يروى عن ابن عباس أنه قال : نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة العَجْز من هَوازن ، واثنان لسائر العرب . والعَجْز هم : سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وكان يقال لهم : عُليا هوازن .

كما يروى عن أبى حاتم السَّجِسْتانى أنه قال : نزل القرآن بلغة قريش ، وهذيل ، وتيم ، ولأزد ، وربيعه ، وهوازن ، وسعد بن بكر .

كما يروى السيوطى فى «الإتقان» آراء غير مُسندة ، منها :

١- أنها سبع لغات متفرقة لجميع العرب ، كل حرف منها لقبيلة مشهورة .

٢- أنها سبع لغات ، أربع لعَجْز هوازن ، وثلاث لقريش .

(١) تأويل مشكل القرآن (ص : ٢٦) .

٣- أنها سبع لغات : لغة لقريش ، ولغة لليمن ، ولغة لجرهم ،
ولغة لهوازن ، ولغة لقُضاعة ، ولغة لتميم ، ولغة لطِيّ .

٤- أنها لغة الكَعْبَيْن : كعب بن عمرو ، وكعب بن لؤى ، ولهما
سبع لغات .

وهذا الخبر مُسند لابن عباس من طريق آخر غير الطريق الأول
الذى رُوى به خبره السابق .

وهذا الاختلاف فى التعيين لا يضير فى شيء ، فثم لغات سبع مفرقة
فى القرآن ، أخبر الرسول عن جملتها ، ولم يخبر عن تفصيلها ، وكان
هذا التفصيل مكان الاجتهاد بين المجتهدين .

وليس معنى الحديث أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات ، بل اللغات
السبع مفرقة ، تقرأ قريش بلغتها ، وتقرأ هذيل بلغتها ، وتقرأ هوازن
بلغتها ، وتقرأ اليمن بلغتها .

وفى ذلك يقول أبو شامة نقلاً عن بعض شيوخه : أنزل القرآن
بلسان قريش ، ثم أبيع للعرب أن يقرئوه بلغاتهم التى جرت عادتهم
باستعمالها ، على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب (١) .

ويعجبني تعقيب لابن الجوزى على كون هذه الأحرف سبعة ، يقول :
وأما وجه كونها سبعة أحرف ، دون أن لم تكن أقل أو أكثر ، فقال
الأكثر : إن أصول قبائل العرب تنتهى إلى سبعة ، وإن اللغات
الفصحى سبع ، وكلاهما دعوى .

(١) الإتيان (ص : ٤٧) .

وقيل : ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل المراد السعة والتيسير ، وأنه لا حَرَجَ عليهم في قراءته بما هو في لغات العرب ، من حيث إن الله تعالى أذن لهم في ذلك .

والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمئة ولا يريدون حقيقة العدد ، بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر (١) .

وكانت هذه اللغات عُلِّمَها إلى الرسول ، قد أحاطه الله بها علماً ، وحين يقرأ الهذلي بين يديه « عتي حين » وهو يريد « حتى حين » (٢) يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها .

وحين يقرأ الأسدى بين يديه « تسود وجوه » (٣) بكسر التاء في « تسود » ، و« ألم اعهد إليكم » (٤) بكسر الهزمة في « أعهد » ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يهمز التميمي على حين لا يهمز القرشي ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارثهم « وإذا قيل لهم » (٥) و« غيض الماء » (٦) بإشمام الضم مع الكسر ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

(١) النشر في القراءات العشر (٢٥ - ٢٦) .

(٢) المؤمنون : ٥٤ - الصافات : ١٧٤ و ١٧٨ - الذاريات : ٤٧ .

(٣) آل عمران : ١٠٦ . (٤) يس : ٦٠ .

(٥) البقرة : ١١ . (٦) هود : ٤٤ .

وحين قرأ قارئهم « هذه بضاعتنا ردت إلينا » (١) بإشمام الكسر مع الضم في « ردت » ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « مالك لا تأمنا » (٢) بإشمام الضم مع الإدغام في ميم « تأمنا » ، يُجيزه ، لأنه هكذا يُلفظ وهكذا يستعمل ، وتكليفه غير هذا عسير .

وحين يقرأ قارئهم « عليهم » ، و « فيهم » بالضم ، ويقرأ قارئ آخر « عليهمو » و « فيهمو » بالصلة ، يجيزه ، لأنه هكذا يُلفظ وهكذا يُستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « قد أفلح » (٣) ، و « قل أوحى » (٤) ، و « خلوا إلى » (٥) ، بالنقل ، يُجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « موسى » و « عيسى » و « سبأ » بالإمالة ، وغيره يلطف ، يُجيزه ، لأنه هكذا يُلفظ وهكذا يُستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « خبيراً » و « بصيراً » ، بالترقيق ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « الصلوات » ، و « الطلاق » ، بالتفخيم ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل (٦) .

(١) يوسف : ٦٥ . (٢) يوسف : ١١ .

(٣) المؤمنون : ١ . الأعلى : ١٤ . الشمس : ٩ .

(٤) الجن : ١ .

(٥) البقرة : ١٤ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص : ٣٠) — النشر في القراءات العشر

(١ : ٢٩) .

ويفسر لك هذا ما روى عن عمر ، قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وقد كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أقرأنيها ، فأتيت به النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال له : اقرأ ، فقرأ تلك القراءة . فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال لي : اقرأ ، فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت . ثم قال : هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقروا منه ماتيسر (١) .

وكذلك يُفسر لك هذا ما روى عن أبي ، قال : دخلت المسجد أصلي ، فدخل رجل فافتتح « النحل » فقرأ ، فخالفني في القراءة ، فلما انفتل قات : من أقرأك ؟ قال : رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . ثم جاء رجل فقام يصلي ، فقرأ وافتتح « النحل » ، فخالفني وخالف صاحبي ، فلما انفتل قلت : من أقرأك ؟ قال : رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . قال : فأخذت بأيديهما فانطلقت بهما إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقلت : استقرئ هذين ، فاستقرأ أحدهما ، فقال : أحسنت . ثم استقرأ الآخر ، فقال : أحسنت .

ويقول ابن قتيبة : « ولو أن كل فريقٍ من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده ، طفلاً وناشئاً وكهلاً ، لاشتد ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه ، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسان ، وقطع للعادة » (٢) .

(١) المرجعان السابقان .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص : ٢٧) - النشر (١ : ٢١) .

١٥ - القراء

ولقد كانت كتابة المصحف بلغة قريش ، أو بحرف قريش ،
بذلك أمر عثمانُ زيدَ بنَ ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعد بن العاص ،
وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وهم ينسخون المصاحف ، وقال
لهم : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما
نزل بلسانهم .

وأرسل عثمان المصاحف إلى الأمصار . وأخذ كل أهل مصر يقرءون
بما في مصحفهم ، يتلقون ما فيه عن الصحابة الذين تلقوا عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ثم قاموا بذلك مقام الصحابة ، الذين تلقوه عن
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فكان بالمدينة نفرٌ ، منهم : ابن المسيب ، ومعاذ
ابن الحارث ، وشهاب الزهري ؛ وكان بمكة نفرٌ ، منهم : عطاء ،
وطاووس ، وعكرمة ؛ وبالكوفة نفرٌ ، منهم : علقمة ، والشَّعبي ،
وسعيد بن جبير ؛ وبالبصرة نفرٌ ، منهم : الحسن ، وابن سيرين ،
وقتادة ؛ وبالشام نفرٌ ، منهم : المغيرة بن أبي شهاب المخزومي ، صاحب
عثمان بن عفان .

ثم تجرد قومٌ للقراءة واعتنوا بضبطها أنمَّ عناية ، حتى صاروا
في ذلك أئمة يُقتدى بهم ، ويُرحل إليهم ، ويُؤخذ عنهم ، وأجمع أهل
بلدهم على تلقى قراءتهم بالقبول ، ولم يختلف عليهم فيها اثنان ،
ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم .

فكان بالمدينة نفر ، منهم : أبو جعفر يزيد بن القَعْقَاع ، ثم نافع ابن أبي نعيم .

وكان بمكة نفر ، منهم : عبد الله بن كثير ، ومحمد بن مُحَيِّصَن .
وكان بالكوفة نَفَرٌ ، منهم . سليمان الأعمش ، ثم حمزة ، ثم الكسائي .

وكان بالبصرة نَفَرٌ ، منهم : عيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن العلاء .

وكان بالشام نفر ، منهم : عبد الله بن عامر ، وشُرَيْح بن يزيد الحَضْرَمِي (١) .

غير أن القُرَاءَ بعد هذا كثروا ، وتفرقوا في البلاد ، وانتشروا في الأقطار ، وكاد يدخل على هذا العلم ما ليس فيه ، فَشَمَّرَ لضبطه وتنقيته أئمة مشهود لهم ، منهم :

١- الإمام الحافظ الكبير أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الداني ، من أهل دانية بالأندلس . وكانت وفاته سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وكتابه في هذا الباب هو : التيسير .

٢- الإمام المقرئ المفسر أبو العباس أحمد بن عمار بن أبي العباس المَهْدَوِي ، المتوفى بعد الثلاثين وأربعمائة . وله كتاب الهداية .

٣- الإمام أبو الحسن طاهر بن أبي الطيب بن أبي غلبون الحلبي ،

(١) النشر (١ : ٨ - ٩) .

نزيل مصر . وتوفى بها سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، وله كتاب :
التذكرة .

٤- الإمام أبو محمد مكى بن أبى طالب القيروانى . وكانت وفاته
سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بقرطبة ، وله كتاب : التبصرة .

٥- الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل ، المعروف بأبى شامة
وله كتاب : المرشد الوجيز .

ولقد كان رائد هؤلاء جميعاً ، فيما أخذوا فيه ، أن كل قراءة وافقت
العربية ولو بوجه ، ووافقت المصحف الإمام وصح سندها ، فهى
قراءة صحيحة لا يجوز ردّها ، ولا يحل إنكارها .

وإذا اختل ركن من هذه الأركان كانت تلك القراءة ضعيفة ،
أو شاذة ، أو باطلة .

وفى ظل هذه القيود التى أجمع عليها القراء :

١- الموافقة للعربية ولو بوجه .

٢- الموافقة للمصحف الإمام ، ولو احتمالاً .

٣- أن يصح سندها .

قام الأئمة بتأليف كتب فى القراءات ، وكان أول إمام جمع
القراءات فى كتاب ، هو أبو عبيد القاسم بن سلام ، المتوفى سنة أربع
وعشرين ومائتين . وقد جعل القراءات نحواً من خمس وعشرين قراءة ،
وتوالى بعده أئمة مؤلفون جمعوا القراءات فى كتب ، منهم من جعلها

عشرين ، ومنهم من زاد ومنهم من نقص ، إلى أن كان الأمر إلى أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ، فاقصر على قراءات لقراء سبع ، هم : عبد الله بن كثير ، في مكة ؛ ونافع بن أبي رُويم ، في المدينة ؛ وأبو عمرو بن العلاء ، في البصرة ؛ وعاصم بن أبي النجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى الكسائي ، في الكوفة ؛ وعبد الله بن عامر ، في الشام .

ثم جاء بعده من رفعها إلى عشر ، نذكر منهم إماماً متأخراً ، وهو : ابن الجزرى أبو الخير محمد بن محمد ، المتوفى سنة ٨٣٣ هـ ، وكتابه هو : النشر في القراءات العشر .

والقراء الثلاثة ، الذين زادوا على السبعة ، هم : يزيد بن القعقاع ، في المدينة ؛ ويعقوب الحضرمي ، في البصرة ؛ وخلف البزار ، في الكوفة .

هذا غير قراء جائعوا بقراءات شاذة ، كان على رأسهم ابن شنبوذ ، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، ثم أبو بكر العطار النحوي ، المتوفى سنة ٣٥٤ هـ .

١٦ - رأي ابن قتيبة في القراءات

وقد لَخَّصَ ابنُ قُتَيْبَةَ وُجُوهَ الخِلافِ في القِراءاتِ، وأَحَبَّ أَنْ أُسَوِّقَ إِلَيْكَ ما قالَ:

يقول ابن قُتَيْبَةَ^(١):

وقد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه:

أولها: الاختلاف في إعراب الكلمة، أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها، نحو قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي مِنْ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ - هود: ٧٨ - و﴿أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ بالنصب - و﴿هَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ - سبأ: ١٧ - و﴿هَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكُفُورَ﴾ - و﴿يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ - النساء: ٣٧، الحديد: ٢٤ - و﴿بِالْبَخْلِ﴾ بفتح الباء والخاء - و﴿فَنَظَرْنَا إِلَى مِيسِرَةٍ﴾ - البقرة: ٢٨٠ - و﴿مِيسِرَةٍ﴾ بضم السين.

ثانيها: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب، نحو قوله تعالى: و﴿رَبُّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ سبأ: ١٩، و﴿رَبُّنَا بَاعَدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، و﴿إِذَا تَلْقَوْنَهُ بِالسُّكْمِ﴾ النور: ١٥ - و﴿تَلْقَوْنَهُ﴾ بفتح فكسر فضم - و﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ يوسف: ٤٥ - و﴿أُمَّةٍ﴾ أي: نسيان.

(١) تأويل مشكل القرآن (٢٨ - ٣٢).

ثالثها : أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها ، بما يُغَيَّرُ معناها ولا يُزِيلُ صورتها ، نحو قوله تعالى : « وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُهَا » - البقرة : ٢٥٩ - و « نُنْشِزُهَا » بالراء - و « حتى إذا فُزِعَ عن قُلُوبِهِمْ » سَبَأ : ٢٣ - و « فُزِعَ » بالراء والغين المعجمة .

رابعها : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يُغَيَّرُ صورتها في الكتاب ولا يُغَيَّرُ معناها في الكلام ، نحو قوله تعالى : « إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » يس : ٢٨ - و « زَقِيَّةً وَاحِدَةً » - و « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » - القارعة : ٥ - و « كَالصُّوفِ » .

خامسها : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يُزِيلُ صورتها ومعناها ، نحو قوله « وَطَلَعَ مَنْضُودٌ » - الواقعة : ٢٩ - و « طَلَحَ » .

سادسها : أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » - ق : ١٩ - وفي موضع آخر : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

سابعها : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ، نحو قوله تعالى : « وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ » ، و « وَمَا عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » يس : ٣٥ ، ونحو قوله تعالى : « إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » لقمان : ٢٦ - و « إِنْ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » .

ثم قال ابن قتيبة :

فإن قال قائل : هذا جائز في الألفاظ المختلفة إذا كان المعنى واحداً

فهل يجوز أيضاً إذا اختلفت المعاني ؟

قيل له : الاختلاف نوعان : اختلاف تغاير ، واختلاف تضاد .

فاختلاف التضاد لا يجوز . ولست واجده بحمد الله في شيء من القرآن ، إلا في الأمر والنهي ، من الناسخ والمنسوخ .

واختلاف التغاير جائز ، وذلك مثل قوله «وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ» أى بعد حين ، و«بَعْدَ أُمَّةٍ» أى بعد نسيان له ، والمعنيان جميعاً ، وإن اختلفا ، صحيحان ، لأن ذكر أمر يوسف بعد حين وبعد نسيان له .

وكقوله : «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ» أى تَقْبِلُونَهُ وتقولونه ، و«تَلَقَّوْنَهُ» من الولى ، وهو الكذب ، والمعنيان جميعاً ، وإن اختلفا ، صحيحان ؛ لأنهم قبلوه وقالوه ، وهو كذب .

وكقوله : «رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا» على طريق الدعاء والمسألة ، و«رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا» على جهة الخبر ، والمعنيان ، وإن اختلفا ، صحيحان .

وكقوله : «وَأَعْتَدْتُ لَهْنٍ مُتَّكَأً» ، وهو الطعام ، و«وَأَعْتَدْتُ لَهْنٍ مُتَّكَأً» بضم الميم وسكون التاء وفتح الكاف ، وهو الأترج . فدللت هذه القراءة على معنى ذلك الطعام .

وكذلك «نَنْشُرُهَا» و«نَنْشُرُهَا» ، لأن الإنشار : الإحياء ، والإنشاز : هو التحريك للنقل ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .

وكذلك «فَزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ» ، و«فَرَّغَ» ، لأن «فَزَعَ» : خفف عنها الفزع ، و«فَرَّغَ» : فرغ عنها الفزع .

ثم قال ابن قتيبة : وكل ما في القرآن من تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقصان ، فعلى مثل هذه السبيل .

١٧ - تعقيب على القراءات

والأمر في القراءات كما يبدو لك ، ينحصر في أحوال ثلاث :

الأولى - وهي تتصل بأحرف العرب أو لغاتها - وهي التي قدمنا منها مثلاً في الإمالة والإشمام والترقيق والتفخيم ، وغير ذلك مما لفظت به القبائل ولم تستطع ألسنتها غيره ، وهذا الذي قلنا عنه : إنه المعنى بالأحرف السبعة التي جاءت في الحديث .

ومامن شك في أن ذلك كان رخصة للعرب يوم أن كانوا لا يستطيعون غيره ، وكان من العسير عليهم تلاوة القرآن بلغة قريش .

ثم مامن شك في أن هذه الرخصة قد نُسخَت بزوال العذر ، وتيسر الحفظ ، وفُشو الضبط ، وتعلم القراءة والكتابة (١) .

وأسوق إليك مقاله الطبرى بعد ماسقت إليك مقاله الطحاوى ، يقول الطبرى :

ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله تعالى عنه ، اختلاف الناس في القراءة ، وخاف من تفرق كلمتهم ، جمعهم على حرف واحد ، وهو هذا المصحف الإمام ، واستوثقت له الأمة على ذلك ، بل أطاعت ورأت أن فيما فعله الرشد والهداية ، وتركت القراءة بالأحرف السبعة ، التي عزم عليها إمامها العادل في تركها ، طاعة منها له ، ونظراً منها لأنفسها ، ولن بعدها من سائر أهل ملتها ، حتى درست من الأمة

(١) معانى الآثار للطحاوى أحمد بن محمد .

معرفتها وعفت آثارها ، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها ، لدورها وعفو آثارها . فإن قال من ضعفت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهم إياها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم بقراءتها ؟ قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحة ورخصة .

الثانية : وهى تتصل برسم المصحف وبقائه فترة غير منقوت ولا مشكول إلى زمن عبد الملك ، حين قام الحجاج بإسناد هذا إلى رجلين ، هما : يحيى بن يعمر ، والحسن البصرى ، فنقطاه وشكلاه .

وما نرى صحيحاً هذا الذى ذهب إليه القراء من تأويلات كثيرة ، تكاد تُحمل الكلمة عشرين وجهاً أو ثلاثين أو أكثر من ذلك ، حتى لقد بلغت طرق هذه القراءات للقراءات العشر فقط تسعمائة وثمانين طريقة .

فلقد كان اجتهداً من القراء ، وكان إسرافاً فى ذلك الاجتهاد . وإنك لو تتبععت ماعقب به الزمخشري ، فى تفسيره على القراء لوجدت له الكثير مما رده عليهم ولم يقبله منهم ، فلقد عقب على ابن عامر فى قراءته لقوله تعالى : « وكذلك زين للمشركين قتل أولادهم شركائهم » الأنعام : ١٣٧ - فلقد قرأها ابن عامر « قتل أولادهم شركائهم » برفع القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء ، على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف .

فقال الزمخشري : فهذا لو كان فى مكان الضرورات - وهو الشعر - لكان شيئاً مردوداً ، فكيف به فى الكلام المنشور ؛ فكيف به

في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته . والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف « شركائهم » مكتوباً بالياء .

ويعقب الزمخشري مرة أخرى على أبي عمرو حين يدغم الراء في اللام ، في قوله تعالى « فيغفر لمن يشاء » - البقرة : ٢٨٤ ، آل عمران : ١٢٩ ، المائدة : ٢٠ و ٤٣ ، الفتح : ١٤ - فيقرأها أبو عمرو : « فيغفر لمن يشاء » .

ويقول الزمخشري : ومدغم الراء في اللام لاحقٌ مخطئٌ خطأً فاحشاً ، وراويهِ عن أبي عمرو مخطئٌ مرتين ، لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية مايؤذن بجهل عظيم .

وكذلك تتبع ابن قتيبة القراء وأحصى لهم الكثير ، وفي ذلك يقول :

وما أقل من سلم من هذه الطبقة في حُرْفِهِ من الغلط والوهم (١) .

ونحن حين نتمكن لهذه القراءات أن تعيش نكون كمن يحاول أن يخرج على ما أراده عثمان ، ومعه على من قبل ، ثم الصحابة ، على وحدة القرآن تلاوة . هذا بعد أن صح لنا أن هذه القراءات اجتهد ، وأن رسم المصحف وإهماله نقطاً وشكلاً جرّ إلى شيء منها .

يقول ابن قتيبة وهو يناقش بعض القراءات :

وليست تخلو هذه الحروف من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الإعراب فيها ، أو أن تكون غلطاً من الكاتب .

(١) تأويل مشكل القرآن (ص : ٤٣) .

(تأريخ القرآن)

فإن كانت على مذهب النحويين ، فليس ها هنا لحن ، بحمد الله .
وإن كانت خطأ في الكتابة ، فليس على الله ولا على رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، جنابة الكاتب في الخط .

ولو كان هذا عيباً يرجع على القرآن لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف من طريق التهجي ، فقد كُتب في الإمام : « إن هذين لساحران (١) » ، بحذف ألف التثنية . وكذلك ألف التثنية تحذف في هجاء هذا المصحف في كل مكان . وكتب كتاب المصحف : الصلوة ، والزكوة والحيوة ، بالواو ؛ واتبعناهم في هذه الحروف خاصة على التيمن بهم (٢) فنحن إذن بين رسم لكتاب كان مارسوا آخر الجهد عندهم ، ولقد حفظ الله كتابه بالحفظة القارئين أكثر مما حفظه بالكتاب الكاتبين ، ثم كانت إلى جانب الحفظ حجة أخرى على الرسم ، وهي لغة العرب ، أقامت الرسم لتدعيم الحفظ ، ولم تُقم الحفظ لتدعيم الرسم ، وكان هذا ما عناه عثمان : أرى فيه لحنًا وستُقيمه العرب بألسنتها . ولقد أقامته بألسنتها ، وتركت الرسم على حاله ممثلاً في مصحفه الإمام ، الذي كان حريصاً على أن تجتمع عليه الأمة الإسلامية . من أجل ذلك أُحرق ماسواه .

غير أن مافعله عثمان لم يقض على كل خلاف ، وأوسع في هذا الخلاف بقاء المصحف الإمام غير منقوط ولا مشكول ، كما قلت لك .
من أجل ذلك كان أول شيء عمله الحجاج ، بعد ما فرغ من نقط

(١) طه : ٦٣ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص : ٤٠ ، ٤١) .

المصحف وشكله ، أن وَكَل إلى عاصم الجَحْدَرِيّ ، وناجية بن رُمح ،
وعليّ بن أصمع ، أن يتتبعوا المصاحف ، وأن يقطعوا كل مصحف يجدونه
مخالفًا لمصحف عثمان ، وأن يعطوا صاحبه ستين درهما . وفي ذلك يقول
الشاعر :

وإِلَّا رُسُومَ الدارِ قَفَرًا كَأَنَّهَا كتاب محاه الباهلي ابن أصمعا(١)
ونحن اليوم في أيدينا هذا المصحف الإمام أقوى ما يكون ضبطًا ،
وأصح ما يكون شكلًا ، فما أغنانا به عن كل قراءة لا يحملها رسمه ،
ولا يُشير إليها ضبطه ، من تلك القراءات التي كانت تلك حالها التي
بَسَطَها لك .

الثالثة : وهي التي تتصل بإحلال كلمة مكان كلمة ، أو تقديم
كلمة على كلمة ، أو زيادة أو نقصان .

وما أظن هذه تكون كلمة تُذكر بعد أن أصبح في أيدينا المصحف
الإمام ، هيأه لنا عثمان في الأولى ، وزَفَّه إلينا الحجاجُ في الثانية ،
وما كان هذان العملان إلا خطوتين : خطوة تدعم خطوة في سبيل الوحدة
الكاملة لكتاب الله ، كما حفظه الله على لسان الحَفَظَة من الصحابة
والتابعين .

وأحب أن أختم الحديث عن القراءات بقول الزُّركَشِيّ في كتابه
« البرهان » ، يقول الزُّركَشِيّ :

القرآن والقراءات حقيقتان مُتغايرتان .

(١) تأويل مشكل القرآن (ص : ٣٧) .

فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ، صلى الله تعالى عليه وسلم ،
للبيان والإعجاز .

والقراءات السبع متواترة عند الجمهور . وقيل : بل مشهورة .
والتحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة .

أما تواترها عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ففيه نظر .

١٨ - رسم المصحف

ومن الناظرين في رسم القرآن فريق صرفهم الإجلال له عن أن يفصلوا بين ماهو وحى من عند الله حرك به لسان رسوله ، وبين ماصوره كُتَاب الرسول حروفاً وكلمات .

وأنت تعرف أن الكلمة الواحدة قد تختلف صورة رسمها على أيدي كتبة يستملون عن مُمل واحد ، إذا اختلفت طرق تلقيهم للإملاء ، غير أنهم حين يلفظون هذه الكلمة مُجمعون على نُطق واحد .

وما من شك في أن القرآن الكريم تعرّض رسمه لهذا الخلاف ، وكان حفظ الله له في بقاء حَفَظْته ، يعى الناس عنهم أكثر ما يعون عن القراءة ، وكانوا بهذا مطمئنين ؛ وحين عدت العاديات على الحفظة بدأ الخوف يدبّ ، وبدأ تفكير الصحابة يتجه إلى ماهو أبقي ، أغنى جمع القرآن مكتوباً .

وكانت محاولة أبي بكر وعمر التي مرت بك ، واجتمع للناس قرآنهم مكتوباً ، وبدأ شغلهم بما هو مكتوب يزحم شغلهم بما هو متلو ، أو يُعَادله . وأخذ الرسم يُملى برسمه ويُقَوِّمه الحِفظ ، في فترة لم يكن الصحابة فيها أبعدوا كثيراً عن فترة نزول القرآن .

وما كانت الأمة العربية عهد كتابة الوحي أمة عريقة في الكتابة ، وما كان كتاب النبي إلا صورة من العصر البادئ في الكتابة ، ولم تكن الكتابة العربية على حالها اليوم من التجويد والكمال إملاءً ورسمًا .

ونظرة في رسم المصحف ، وما يحمل من صور إملائية تخالف ما استقر عليه الوضع الإملائي أخيراً ، تكشف لك عما كان العرب عليه إملاءً ، وعما أصبحنا عليه نحن إملاءً .

وحين أطل عهد عثمان كاد اختلاف الناس في قراءة المرسوم يجرّ إلى خروجهم على المحفوظ ، من أجل هذا فزع عثمان إلى نفر من الصحابة كتبوا للرسول وَحْيَهُ ، ليدركوا هذا المرسوم ، كي يخرجوا منه بصورة خطية تصور ما أجمع عليه الحُفَظ .

وقد لا يفوتك أن الخط العربي ، عصر كتابة الوحي إلى أيام عبد الملك بن مروان ، لم يكن عَرَفَ النقط المميز للحروف في صورته الأخيرة ، كما لم يكن عَرَفَ شكل الكلمات ، وبقي المصحف المرسوم ينقصه النقط في صورته الأخيرة وينقصه الشكل ، وعاش يحميه حِفْظُ الحُفَظ له من اللحن . غير أن الأمة العربية كانت قد انتشرت ، وأطل الإسلام تحت لوائه أمماً مختلفة ، وأصبح الحِفْظ في هذه البيئة الواسعة ، وبين هؤلاء الأقوام المختلفين ، لا يُغْنِي غناءه أيام أن كانت البيئة محدودة والأقوام غير مختلفين ، من هنا كان لابد من نقط وشكل على يد الحَجَّاج ، كما مر بك .

ولقد كانت هذه المراحل التي مرّ بها جمع القرآن وكتابته ونقطه وشكله نتيجةً لقصور الكتابة العربية والخط العربي . إذ لو كانت في كمالهما اليوم لما احتاج القرآن في رسمه إلى مرحلة بعد مرحلة ، ولُكُتِبَ يوم أن كُتِبَ للمرة الأولى في صورة أخيرة .

ونحن بحمد الله ، على الرغم من بُعد عهدنا بنزول القرآن ، لم نبعد

عن وعيه كما أنزل ، تصديقاً لقوله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (١) ، غير أنه يجب أن يلفتنا إلى قرآننا مalfت الشيخين عمر وأبا بكر إليه ، ثم مalfت عثمان إليه ، ثم مalfت الحجاج إليه . فهذه لفتاتٌ أحس فيها أصحابها الخوف من أن يمس القرآن سوءً ، جمعه للناس مكتوباً يوم أن خافوا ذهاب الحُفاظ ، ثم أجمعوا على مُصحف واحد يوم أن خافوا تفرق الناس على مصاحف ، ثم نَقطوه وضبطوه يوم أن خافوا أن يتفرق الناس في قراءته .

هذه كلها خطوات واعية من أناس واعين ، بإلهام ربٍّ مُعين . وأخشى مانخشاه نحن اليوم ، أو بعد اليوم ، أن يبقى القرآن برسمه القديم الذى يختلف وإملاء العصر فيخلق بهذا بلبلة على الألسن ، ومانحن فى كل بيئة نملك حُفاظاً يضبطون الألسنة عن أن تلتوى ، وإن ملكنا فى كل بيئة حُفاظاً فمحال أن يجد كل قارئ حافِظاً إلى جواره .

يجب أن نخاف ماخافه السلف ، ويجب أن نحتاط كما احتاط السلف ، ويجب أن نفصل بين وحى الله وأقلام الكتاب . وما أظن أن تيمننا بخط من سلف يُغرينا بمزيد من حرص عليه قد يَجْرُنَا إلى ما لا نُحب .

كما لا أظن أن شيئاً كهذا يثير بين الناظرين فى رسم القرآن جدلاً ، فالحق فيه بيّن ، وقد نادى السلفُ العالمون العاملون ، ممن قدّمت لهم نقولاً فى ذلك (٢) .

(١) الحجر : ٩

(٢) الفرقان ، لابن الخطيب (٥٧-٩١)

١٩ - كتابة المصحف وطبعه

مرَّ بك كيف كان الوحي يكتب ، وعلى أى شيء كان يكتب ،
ثم من كانوا كُتَّابه .

ومرَّ بك أيضًا كيف جمعه أبو بكر وعمر ، ثم كيف كتب عثمان
مصحفه الإمام ، وأرسل منه مصاحف أربعة إلى الأمصار : مكة ، والبصرة ،
والكوفة ، والشام ، وأنه أبقى اثنين آخرين في المدينة ، اختص نفسه
بواحد منهما .

ومنذ أن دخلت هذه المصاحف الأمصار أقبل المسلمون ينسخونها ،
ولقد نسخوا منها عددًا كثيرًا ، لاشك في ذلك .

فنحن نقرأ للمسعودي وهو يتكلم على وقعة صفين ، التي كانت
بين علي ومعاوية ، وما أشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف ،
حين أحس ظهور علي عليه : ورُفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة
مصحف (١) .

وما نظن هذا العدد الذي رفع من المصاحف في معسكر معاوية كان
كل ما يملكه المسلمون حينذاك ، والذي نظنه أنه كان بين أيدي المسلمين
ما يُربى على هذا العدد بكثير ، هذا ولم يكن قد مضى على كتابة عثمان
لمصحفه الإمام وإرساله إلى الأمصار ما يزيد على سنين سبع .

(١) مروج الذهب (٢ : ٢٠) .

والجديد الذى أحب أن أسوقه هنا ، نقلاً عن نظروا فى نشأة الخط العربى (١) : أن العرب كانوا قبيل الإسلام يكتبون بالخط الحيرى - نسبة إلى الحيرة - ثم سُمى هذا الخط بعد الإسلام بالخط الكوفى .

وهذا الخط الكوفى فرع - كما يقولون - من الخط السريانى ، وأنه على الأخص طور من أطوار قلم للسريان كانوا يسمونه «السطر نجيلى» ، وكان السريان يكتبون به الكتاب المقدس ، وعن السريان انتقل إلى العرب قبل الإسلام ، ثم كان منه الخط الكوفى ، كما ذكرت لك .

ولقد كان للعرب إلى جانب هذا القلم الكوفى قلم نبطى ، انتقل إليهم من حوران مع رحلاتهم إلى الشام . وعاش العرب ولهم هذان القلمان : الكوفى والنبطى ، يستخدمون الكوفى لكتابة القرآن ، ويستخدمون النبطى فى شئون أخرى .

وبالخط الكوفى كان كُتِب المصاحف ، غير أنه كان أشكالاً ، واستمر ذلك إلى القرن الخامس تقريباً ، ثم ظهر الخط الثلث ، وعاش من القرن الخامس إلى مايقرب من القرن التاسع ، إلى أن ظهر القلم النسخ ، الذى هو أساس الخط العربى إلى اليوم .

فلقد كتب القرآن بالكوفى أيام الخلفاء الراشدين ، ثم أيام بنى أمية ، وفى أيام بنى أمية صار هذا الخط الكوفى إلى أقلام أربعة .

(١) كشف الظنون (١ : ٧١٠ - ٧١٤) فهرست ابن النديم (٢٤ -

٢٦) . الخط العربى لتحليل نامى ، تاريخ الخط العربى لمحمد طاهر الكردى .

ويعززون هذا التشكل في الأقلام إلى كاتب اسمه قطبة ، وكان كاتب أهل زمانه ، وكان يكتب لبني أمية المصاحف .

وفي أوائل الدولة العباسية ظهر الضحاك بن عجلان ، ومن بعده إسحاق بن حماد ، فإذا هما يزيدان على قطبة ، وإذا الأقلام العربية تبلغ اثني عشر قلماً : قلم الجليل ، قلم السجلات ، قلم الديباج ، قلم اسطورمار الكبير ، قلم الثلاثين ، قلم الزنبور ، قلم المفتاح ، قلم الحرم ، قلم المؤامرات ، قلم العهود ، قلم القصص ، قلم الحرفاج .

وحين ظهر الهاشميون حدث خط يسمى : العراقي ، وهو المحقن . ولم تنزل الأقلام تزيد إلى أن انتهى الأمر إلى المأمون فأخذ كتابه بتجويد خطوطهم ، وظهر رجل يعرف بالأحول المحرر ، فتكلم على رسوم الخط وقوانينه وجعله أنواعاً .

ثم ظهر قلم المرصع ، وقلم النساخ ، وقلم الرياس ، نسبة إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل ، وقلم الرقاع ، وقلم غبار الحلبة .

فزادت الخطوط على عشرين شكلاً ولكنها ، كلها من الكوفي . حتى إذا ماظهر ابن مقلّة « ٣٢٨ هـ » نقل الخط من صورة القلم الكوفي إلى صورة القلم النسخي ، وجعله على قاعدة جميلة كانت أساساً لكتابة المصاحف .

وينقل المقرئ عن ابن خليل السكوفي أنه شاهد بجامع العديس بإشبيلية أربعة مصحف في أسفار ينحى به لنحو خطوط الكوفة ، إلا أنه أحسن خطأ وأبينه وأبرعه وأتقنه ، وأن أبا الحسين بن الطفيل بن عزيمة قال له : هذا خط ابن مقلّة .

ثم يقول المقرئ وقد رأيت بالمدينة المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، مصحفاً بخط ياقوت المستعصمي (١) .

ولقد كانت وفاة ياقوت هذا سنة ٦٩٨ هـ ، وكان سباقاً في هذا الميدان .

ويقول محمد بن إسحاق : أول من كتب المصاحف ، في الصدر الأول ، ويوصف بحسن الخط : خالد بن أبي الهياج . رأيت مصحفاً بخطه . وكان سعد نصّبه لكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك ، وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بالذهب ، من « والشمس وضحاها » إلى آخر القرآن .

ويقال : إن عمر بن عبد العزيز قال له : أريد أن تكتب لي مصحفاً على هذا المثال . فكتب له مصحفاً تنوّق فيه . فأقبل عمر يقبله ويستحسنه ، واستكثر ثمنه فردّه عليه .

ومالك بن دينار ، مولى أسامة بن لؤي بن غالب ، ويكنى : أبا يحيى . وكان يكتب المصاحف بأجر . ومات سنة ثلاثين ومائتين .

ثم أورد ابن إسحاق نفراً من كتاب المصاحف بالخط الكوفي وبالخط المحقق المشق ، وقد رأهم جميعاً .

والذي لاشك فيه أن هذه الأقلام المختلفة تبارت في كتابة المصحف ، كما كتب بأقلام غير هذه ، ذكر منها الكردي في كتابه « تاريخ الخط

(١) نفع الطيب (٦ : ٤٠) .

العربي « قلمين ، هما : سياقت ، وشكسته ، وأورد لهما نماذج ، فارجع إليه إن شئت .

وظلت المصاحف على هذه الحال إلى أن ظهرت المطابع سنة ١٤٣١ م ، وكان أول مصحف طبع بالخط العربي في مدينة همبرج بألمانيا ، ثم في البندقية في القرن السادس عشر الميلادي .

وحين أخذت المطابع تشيع كثر طبع المصحف ، إذ هو كتاب المسلمين الأول وعليه معتمدتهم .

٢٠ - تجزئة المصحف

ولقد سقنا لك الحديث عن عدد سور القرآن ، وعدد كلماته ، وعدد حروفه ، وما نظن هذا كله بدأً مع السنين الأولى أيام كان المسلمون مشغولين بجمع القرآن وتدوينه ، عهد أبي بكر وعمر ثم عهد عثمان ، وما نظنه إلا تخلف زمنًا بعد هذا إلى أيام الحجاج .

ولقد كان المسلمون والوحي لا يزال متصلاً يختصون يومهم بنصيب من القرآن ، يخلون إلى أنفسهم ساعة من يومهم هذا يتلون فيها ما تيسر ، يفرض كل منهم على نفسه جزءًا بعينه ، وإلى هذا يشير ما روى عن المغيرة بن شعبة ، قال : استأذن رجل على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو بين مكة والمدينة ، فقال : إنه قد فاتني الليلة جزئي من القرآن فإني لأؤثر عليه شيئاً (١) .

وما نشك في أن هذه التجزئة كانت فردية ، أي إن مرجعها كان لكل فرد على حدة . ونكاد نذهب إلى أنها لم تكن على التساوى .

وهذه التجزئة ، التي أخذ فيها المسلمون مبكرين ليجمعوا للقرآن حظاً من ساعات يومهم حتى لا يغيبوا عنه فيغيب عنهم ، وحتى ييسروا على أنفسهم ليمضوا فيه إلى آخره أسبوعاً بعد أسبوع ، أو شهراً بعد شهر ، هذه التجزئة الأولى غير المضبوطة هي التي أملت على المسلمين بعدُ في أن يأخذوا في تجزئة القرآن تجزئة تخضع لمعايير مضبوطة ، ولم يكن عليهم ضمير في أن يفعلوا .

(١) المصاحف (ص : ١١٨) .

عند هذه ، وبعد أن استوى المصحف بين أيديهم مكتوباً ، كان عدّ السور وعدّ الكلمات وعدّ الآيات . ولا يدفع هذا أن المسلمين الأوّل أيام الرسول كانوا بعيدين البعد كله عن هذا كله ، بل إن مانعيه هو الإحصاء المستوعب الشامل ، وأما غيره فما نظرنا ننكره على المسلمين الأوّل ، من ذلك ما روى عن ابن مسعود أنه قال : أقرأني رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سورة من الثلاثين من آل حم . يعنى : الأحقاف .

وأزيدك بعد هذا شيئاً أنقله لك عن السيوطى لتشاركنى رأيي ، قال السيوطى : كانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سُميت الثلاثين (١) .

وأرأني قد ذكرت لك في بدء هذا الحديث أن هذا الاستيعاب الشامل لم يكن إلا مع أيام الحجاج ، وأحب أن أسوق إليك دليلى عليه :

يروى أبو بكر السجستاني ، يقول : جمع الحجاج بن يوسف الحفاظ والقراء ، وكان فيهم أبو محمد الحماني راشد بن نجيح ، فقال الحجاج : أخبروني عن القرآن كله كم هو من حرف ؟ قال أبو محمد : فجعلنا نحسب حتى أجمعوا أن القرآن ثلاثمائة ألف حرف وأربعين ألفاً وسبعمائة ونيف وأربعين حرفاً . قال الحجاج : فأخبروني إلى أي حرف ينتهى نصف القرآن . فحسبوا فأجمعوا أنه ينتهى في الكهف «ولينلطف» - الآية : ١٩ - في الفاء . قال الحجاج : فأخبروني بأسبابه على الحروف ؟

(١) الإتيان (١ : ٦٦) .

قال أبو محمد : فإذا أول سُبُع في النساء « فمنهم من آمن به ومنهم من صد » - الآية : ٥٥ - في الدال . والسبع الثاني في الأعراف « أولئك حبِطت » - الآية : ١٤٧ - في التاء . والسبع الثالث في الرعد « أكلها دائم » - الآية : ٣٥ - في الألف آخر « أكلها » الآية : ٣٢ . والسبع الرابع في الحج « لكل أمة جعلنا منسكا » - الآية : ٣٤ - في الألف . والسبع الخامس في الأحزاب « وما كان لمؤمن ولأمنة » - الآية : ٣٦ - في الهاء . والسبع السادس في الفتح « الظانين بالله ظن السوء » - الآية : ٦ - في الواو . والسابع مابقي من القرآن . قال الحجاج : فأخبروني بثلاثه ؟ قالوا : الثلث الأول رأس مائة من براءة . والثلث الثاني رأس إحدى ومائة آية من طسم الشعراء . والثلث الثالث مابقي من القرآن . ثم سألهم الحجاج عن أرباعه ، فإذا أول ربع خاتمة سورة الأنعام . والربع الثاني الكهف « وليتلطف » - الآية : ١٩ - والربع الثالث خاتمة الزمر . والربع الرابع مابقي من القرآن .

كانت هذه نظرة الحجاج مع القراء والحُفاظ ، وكانت تجزئته للقرآن لَوْفَق عدد حروفه ، ولقد رأيناه كيف جزأه نصفين ، ثم أسباعا ، ثم أثلاثا ، ثم أرباعا .

وما نظن الحجاج كان يستمل في هذه التجزئة إلا عن تفكير في التيسير ، فجعله نصفين على القارئ المجد ، ثم أثلاثا على اللاحق ، ثم أرباعا على من يتلو اللاحق ، ثم أسباعا على من يريد أن يتمه في أسبوع ، وكانت تلك هي النهاية التي أحبها الحجاج للمسلمين ، وكأنه لم يحب لهم أن يتجاوزوها ، لذلك لم يعض مع القراء والحفاظ

يسألهم عما بعدها . ونحن نعلم أن الحجاج كان يقرأ القرآن كله في كل ليلة (١) .

وحين نظر الحجاج في القرآن يجرئه هذه التجزئة التي تحدّها الحروف ، بدأ غيره من بعده ينظرون في تجزئة القرآن تجزئة تملّيها الآيات ، فقسموه أنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً وأخماساً وأسداساً وأسباعاً وأثماناً وأتساعاً وأعشاراً .

وما نظن هؤلاء الذين جاءوا في إثر الحجاج بهذه التجزئة ، التي تخالف تجزئة الحجاج ، كانوا يستملون إلا عن مثل ما استملّى الحجاج عنه ، وهو التيسير ، ثم الإرخاء في هذا التيسير ، ثم تخصيص كل يوم بنصيب لا يزيد ولا ينقص ، وكان أقصى ما أرادوه لكل مسلم أن يتم قراءة القرآن في أيام لا تعدو العشرة .

ولقد مرّ بك قبلُ عند الكلام على عدّ آيات القرآن ما كان من خلاف في عدّ الآيات يسير علمت سببه ، وأحبك أن تعلم أن هذا الخلاف اليسير في عدّ الآيات جرّ إلى خلاف يسير في هذه التجزئة .

ولإذ كانت فكرة الحجاج ، وفكرة من جاء بعد الحجاج ، في تجزئة القرآن هي التيسير على التالى - كما أرى - وكان الحجاج متشدداً ، متشدداً على نفسه أولاً ، كما رأيت ، فلم يجاوز في تيسيره إلى غير سبعة أيام ، ولكن من جاءوا بعد الحجاج لم يكونوا على تشدد الحجاج فأرخوا شيئاً في التيسير وزادوها إلى عشرة .

(١) المصاحف (ص ١١٩ - ١٢٠) .

وما وقف التيسير عند هذا الحد الذى انتهى إليه من جاءوا فى إثر
الحجّاج ، بل نرى المُيسّرِين أَرْخَوْا للقارئِين إلى أن بلغوا بهم الثلاثين ،
فإذا القرآن يُجَزَّأ إلى ثلاثين جزءًا .

غير أن هذه المراحل التى جاءت بعد الحجّاج لم تتم فى يوم وليلة ،
بل امتدت بامتداد الأيام ، ولقد كانت وفاة الحجّاج فى العام الخامس
والتسعين من الهجرة ، ونرى السجستانى يروى أخباره فى تجزئة القرآن
تلك التجزئة الثانية عن رُواة تنحصر وفاتهم فى القرن الثانى للهجرة .
ثم نرى ابن النديم ، وهو يتكلم عن الكتب المؤلفة فى أجزاء القرآن ،
يذكر لنا :

١ - كتاب أسباع القرآن ، لحمزة بن حبيب بن عمارة الزيات .
ولقد كانت وفاة حمزة سنة ١٥٨ هـ .

٢ - كتاب أجزاء ثلاثين ، عن أبى بكر بن عياش ، ولقد كانت
وفاة أبى بكر بن عياش سنة ١٩٣ هـ (١) .

وما يعيننا الكتاب الأول ، فلقد علمنا أن تجزئة القرآن أسباعًا ،
كانت على يد الحجّاج حروفًا ، وقد تكون على يد حمزة آيات ،
أقول : لا تعينى هذه ولكن تعينى الثانية ، فهى تدلنا على أن تجزئة
القرآن إلى ثلاثين جزءًا ، وهى التجزئة التى عليها مصاحفنا اليوم ،
تجزئة قديمة انتهت إلى أبى بكر ، بهذا يشعرنا أسلوب ابن النديم ،
إذ لم يَعْزُ الكتاب لأبى بكر ، وإنما قال : عن أبى بكر .

(١) الفهرست (ص : ٥٥) طبعة مصر .

إذن فتجزئة القرآن ثلاثين جزءاً لم تغب عن القرن الثاني الهجرى ، ولا يبعد أن تكون دون منتهاه بكثير ، فلقد كان مولد أبى بكر سنة ست وتسعين من الهجرة ، والرجل يصلح للتلقى والرواية مع الخامسة والعشرين من عمره ، أى إن أبا بكر كان رجل رواية وتلقى مع العام العشرين بعد المائة الأولى من الهجرة .

وهذه التجزئة الأخيرة ، أعنى تجزئة القرآن ثلاثين جزءاً ، هى التجزئة التى غلبت وعاشت ، ولعل ماساعد على غلبتها يُسرُّها ، ثم ارتباطها بعدد أيام الشهر ، ونحن نعلم كم تجد هذه التجزئة إقبالا عظيماً فى شهر رمضان من كل عام . وما نظن الذين جزَّؤا انتهوا إلى هذه التجزئة الأخيرة فى مرحلة واحدة متجاوزين التجزئة العشرية إلى التجزئة الثلاثينية ، والذي نقطع به أنه كانت ثمة تجزئات بين هاتين المرحلتين لا ندرى تدرجها ، ولكن يعيننا أن نُقيد أن ثمة تجزئة تقع فى عشرين جزءاً ، تحتفظ بها مكتبة دار الكتب .

وبهذه التجزئة - أى إلى ثلاثين جزءاً - أصبح القرآن يُعرض أجزاء منفصلة ، كل جزء على حدة ، وأصبحنا نراه فى المساجد ، لاسيما فى شهر رمضان ، محفوظاً فى صناديق بأجزائه الممتة الثلاثين ، كل مجموعة فى صندوق ، يقدمه الراغبون فى الثواب إلى الوافدين إلى المساجد رغبة فى تلاوة نصيب من القرآن .

وأصبح يطلق على هذه الأجزاء الممتة الثلاثين اسم ربعة . والربعة فى اللغة : الصندوق ، أو الوعاء من جلد . ولعل تسمية الأجزاء الممتة الثلاثين بهذا الاسم جاءت من إطلاق المحل على الحال فيه .

ولكن هذا التيسير الأخير جَرَّ إلى تيسير آخر يتصل به ، وما نشك في أن الدافع إليه كان التيسير على الحافظين ، بعد أن كان التيسير على القارئين ، وفرَّق بين أن يُيسر على قارئ وبين أن يُيسر على حافظ . من أجل هذه ، فيما نظن ، كان تقسيم الأجزاء المتمة الثلاثين إلى أحزاب ، كل جزء ينقسم إلى حزبين ، ثم تقسيم الحزب إلى أرباع ، كل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع .

وعلى هذا التقسيم الأخير طبعت المصاحف ، واعتمد هذا التقسيم ، على الجانب الراجح بين القراء في عدد الآيات ، فأنت تعلم هذا الخلاف الذى بينهم .

فالمدينون الأول يعدون آيات القرآن	٦٠٠٠ آية
والمدينون المتأخرون يعدون آيات القرآن	٦١٢٤ آية
والمكيون المتأخرون يعدون آيات القرآن	٦٢١٩ آية
والكوفيون يعدون آيات القرآن	٦٢٦٣ آية
والبصريون يعدون آيات القرآن	٦٢٠٤ آية
والشاميون يعدون آيات القرآن	٦٢٢٥ آية

وفى هذا الخلاف كان ثمة ترجيح وثمة اتفاق وثمة تغليب . وقد انبرى لهذه السفاسى فى كتابه «غيث النفع» . ولقد اعتمد السفاسى على رجلين سبقاه فى هذه الصناعة . هما : أبو العباس أحمد بن محمد بن

أبي بكر القسطلاني ، في كتابه «لطائف الإشارات في علم القراءات» ،
والقادري محمد ، في كتابه «مسعف المقرئين ومعين المشتغلين بمعرفة
الوقف والابتداء» ، وانتهى إلى الرأي الراجح أو المتفق عليه ، وبهذا أخذ
الذين أشرفوا على طبع المصحف طبعته الأخيرة في مصر ، وخرج يحمل
الإشارات الجانبية الدالة على مكان الأجزاء والأحزاب وأرباع الأحزاب .

٢١ - الاستعاذة والبسملة

ولا خلاف بين العلماء أن القارئ للقرآن مطلوب منه عند البدء في القراءة أن يتعوذ ، والصيغة المختارة للتعوذ هي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وعند الجمهور أن التعوذ على الندب لا على الوجوب .

ثم لا خلاف بين العلماء في الجهر بها عند البدء في القراءة ، لأنها شعارها .

ولابد من قراءة البسملة أول كل سورة ، تحرزاً على مذهب الشافعي . وقد اختلف العلماء في البسملة على ثلاثة أقوال :

١- أنها ليست بآية ، لا من الفاتحة ولا من غيرها ، وهو قول مالك .

٢- أنها آية من كل سورة ، وهو قول عبد الله بن المبارك .

٣- أنها آية من الفاتحة ، وهو قول الشافعي .

٢٢ - الناسخ والمنسوخ

النسخ ، لغة : إبطال الشيء ورفعہ . والمتكلمون عن النسخ في القرآن يجعلونه على ثلاثة أضرب :

١- ما نسخ خطه وحكمه . ويروون في ذلك عن أنس أنه قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سورة تغلها سورة التوبة ، ما أحفظ منها غير آية واحدة « ولولا أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى إليها رابعاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » .

كما يروون عن ابن مسعود أنه قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فحفظتها وكتبتها في مصحفى ، فلما كان الليل رجعت إلى مصحفى فلم أرجع منها بشيء ، وغدوت على مصحفى فإذا الورقة بيضاء . فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : يا ابن مسعود ، تلك رُفعت البارحة .

وهذا عندى قِسم يكاد سَرده يدل عليه ويكشف عن سقوطه ، فما أَجَلَ الله حكيماً عليماً ، وما كانت الرسالة تجربة بشرية يجوز عليها تعديل أو الوقوع فيما سَيُنْقَضُ بعد حين . ولقد كان الرسول يحدث المسلمين بحديثه ، ويقرأ عليهم وحى السماء ، ولقد كان عليه السلام يعارضهم ما حملوه عنه على التوالى ، حرصاً على سلامة الوحي من أن يختلط به غيره ، وكم من سامع خلط ما بين ما هو وحى وبين ما هو حديث للرسول ، ولكنه كان بعد حين قليل مردود إلى السلامة حين

يلقى بما عنده الرسول ، أو يلقي أصحابيا على بصيرة بما هو وحي وما هو حديث .
وسرعان ما كانت تستقيم الأمور ، وسرعان ما كان يبين هذا من ذاك ،
حتى إذا ما حان أن يقبض الله إليه رسوله كانت العرضة الأخيرة للقرآن ،
ولم تكن إلا لهذا ومثله .

٢- ما نُسَخ خطه وبقي حُكمه . ويروون لهذا خبراً عن عمر بن الخطاب
يقول :

لولا أني أكره أن يقول الناس : قد زاد في القرآن ما ليس فيه لكتبت آية
الرجم وأثبتها ، فوالله لقد قرأناها على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :
« لا ترغبوا عن آبائكم فإن ذلك كفر بكم . الشيخ والشيخة إذا زنيا
فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

وأحسب أن عمر ، لو صح هذا عنه ، وأنه سمعها عن الرسول ،
ما تخلف عن أن يكتبها ، ثم ألم يسمعها مع عمر غيره فيجعل منه شاهداً
معه ، إن كان عمر لا يرى أنه وحده مُجزي ، اللهم إن هذا ينقض علينا
ذاك التحري في الجمع الذي قام به الصحابة ، وينقض علينا تلك
المعارضات التي كانت تتم بين الرسول والقارئ ، وينقض علينا التفكير
السليم . وما نحب لمن يعالج ما يتصل بكتاب الله إلا أن يكون ذا تفكير سليم .

٣- ما نُسَخ حُكمه وبقي خطه . وهذا شيء يقتضيه التشريع والانتقال
من حُكم إلى حُكم ، مثال ذلك الآيات التي تتصل بالقبلة ، والتي انتهت
بقوله تعالى يخاطب نبيه « قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » (١) ، وكانت
قبلها « فَأَيْنَمَا تُولُوا فَهُم وَجْهَ اللَّهِ » (٢) .

ومثل قوله تعالى «إِنَّمَا حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ» (١)
فجاء قوله عليه الصلاة والسلام: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ السَّمَكُ وَالْجَرَادُ
وَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ» يستثنى شيئاً من الميته المذكورة في القرآن .
وقد عد الناظرون في هذا نحواً من ١٤٤ ، منها :

- | | |
|-------------------------------|----------------------------|
| (١) ثلاثون آية في البقرة | (٢) عشر آيات في آل عمران |
| (٣) أربع وعشرون آية في النساء | (٤) تسع آيات في المائدة |
| (٥) خمس عشرة آية في الأنعام | (٦) آيتان في الأعراف |
| (٧) ست آيات في الأنفال | (٨) إحدى عشر آية في التوبة |
| (٩) ثمان آيات في يونس | (١٠) أربع آيات في هود |
| (١١) آيتان في الرعد | (١٢) آية في إبراهيم |
| (١٣) خمس آيات في الحجر | (١٤) أربع آيات في النحل |
| (١٥) ثلاث آيات في بني إسرائيل | (١٦) آية في الكهف |
| (١٧) خمس آيات في مريم | (١٨) ثلاث آيات في طه |
| (١٩) ثلاث آيات في الأنبياء | (٢٠) ثلاث آيات في الحج |
| (٢١) آيتان في المؤمنون | (٢٢) سبع آيات في النور |
| (٢٣) آيتان في الفرقان | (٢٤) آية واحدة في النمل |
| (٢٥) آية واحدة في القصص | (٢٦) آية واحدة في العنكبوت |
| (٢٧) آية واحدة في الروم | (٢٨) آية واحدة في السجدة |
| (٢٩) آيتان في الأحزاب | (٣٠) آية واحدة في سبأ |
| (٣١) آية واحدة في الملائكة | (٣٢) أربع آيات في الصافات |
| (٣٣) آيتان في ص | (٣٤) ثلاث آيات في الزمر |

(٣٥) آيتان في حم « المؤمن » .	(٣٦) آية واحدة في حم « السجدة » .
(٣٧) سبع آيات في الشورى	(٣٨) آيتان في الزخرف
(٣٩) آية واحدة في الدخان	(٤٠) آيتان في الجاثية
(٤١) آيتان في الأحقاف	(٤٢) آيتان في محمد
(٤٣) آيتان في : ق	(٤٤) آيتان في الذاريات
(٤٥) آيتان في الطور	(٤٦) آيتان في النجم
(٤٧) آية واحدة في القمر	(٤٨) آية واحدة في المجادلة
(٤٩) ثلاث آيات في الامتحان	(٥٠) آيتان في القلم
(٥١) آيتان في المعارج	(٥٢) ست آيات في المزمل
(٥٣) آيتان في الإنسان	(٥٤) آية واحدة في عبس
(٥٥) آية واحدة في التكويد	(٥٦) آية واحدة في الطارق
(٥٧) آية واحدة في الغاشية	(٥٨) آية واحدة في التين
(٥٩) آية واحدة في العصر	(٦٠) آية واحدة في الكافرون

فهذا بيان الآيات التي فيها نسخ تستطيع أن ترجع إلى تفصيلها في كتب النسخ ، مثل كتاب « الناسخ والمنسوخ » لأبي القاسم هبة الله ابن سلامة ، المتوفى سنة ٤١٠ من الهجرة ، ثم في كتب التفسير .

وسوف نرى أن كل ما يتصل بها هو ترتب أحكام اقتضاها التشريع السماوى الذى أملاه نزول القرآن مجزئاً لَوْفَقَ أحوال المسلمين وتدرجهم في الحياة ، الأمر الذى قدمنا عنه حديثاً عند الكلام على نزول القرآن مجزئاً لاجملة واحدة .

٢٣ - الحروف المقطعة في أوائل السور

ويعَد المفسرون هذا من المُتشابه في القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، غير أن ابن قتيبة يرى أن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ، ويدل به على معنى أرادته . ويقول : فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال ، وتعلق علينا بعله .

ويعضى ابن قتيبة في حديثه فيقول : وهل يجوز لأحد أن يقول : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم يكن يعرف المتشابه ، وإذا جاز أن يعرفه مع قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله » (١) جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته . فقد علم علماً التفسير .

ودعا لابن عباس فقال : اللهم علمه التأويل وفقّهه في الدين . ثم يقول ابن قتيبة : وبعد . فإننا لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمروه كله على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور .

ويقول ابن قتيبة في تفسير قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به » (١) : فإن قال قائل : كيف يجوز في اللغة أن يعلمه الراسخون في العلم ، وأنت إذا أشركت الراسخين في العلم انقطعوا عن « يقولون » ، وليست هاهنا « واونسق » توجب للراسخين فعلين ؟ قلنا له : إن « يقولون » هاهنا في معنى الحال ، كأنه قال : « والراسخون في العلم قائلين آمنا به » (٢) .

(١) آل عمران : ٧ (٢) تأويل مشكل القرآن (٧٢ - ٧٣) .

والمفسرون مختلفون في تفسير هذه الحروف المقطعة .

١ - فمنهم من يجعلها أسماء للصور ، تُعرف كل سورة بما افتتحت به منها ، فهي أعلام تدل على ما تدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء وتفرق بينها ، فإذا قال القائل : قرأت « الص » أوقرأت « ص » أو « ن » ، دل بذلك لي ماقراً .

ولا يرد هذا أن بعض هذه الأسماء يقع لعدة سور ، مثل « حم » و « ألم » ، إذ من الممكن التمييز بأن يقول : حم السجدة و « ألم » البقرة ، كما هي الحال عند وقوع الوفاق في الأسماء ، فتميزها بالإضافات وأسماء الآباء والكنى .

٢ - ويجعلها بعضهم للقسم ، وكان الله عز وجل أقسم بالحروف المقطعة كلها ، واقتصر على ذكر بعضها من ذكر جميعها ، فقال « ألم » ، وهو يريد جميع الحروف المقطعة ، كما يقول القائل : تعلمت « أ ب ت ث » ، وهو لا يريد تعلم هذه الأحرف دون غيرها من الثانية والعشرين .

ولقد أقسم الله بحروف المعجم لشرفها وفضلها ، إذ هي مباني كتابه المنزل على رسوله .

٣ - ويجعلها بعضهم حروفاً مأخوذة من صفات الله تعالى ، يجتمع بها في المفتوح صفات كثيرة . ويكون هذا فناً من فنون الاختصار عند العرب .

وهذا الاختصار عند العرب كثير ، يقول الوليد بن عتبة من رجز له :

قلت لها قفى فقالت قاف

أى قالت : قد وقفت ، فأومأ بالقاف إلى معنى الوقوف .

وعلى هذا يجعل المفسرون كل حرف من هذه الحروف يشير إلى
صفة من صفات الله .

فيقول ابن عباس مثلاً في تفسير قوله تعالى «كهيعص» : إن الكاف
من كاف ، والهاء من هادٍ ، والياء ، من حكيم ، والعين ، من عليم ، والصاد ،
من صادق .

هذا مجمل ماذهب إليه المفسرون القدامى في معاني هذه الحروف
المتقطعة ، وفي كل منها مقنع .

أما عما ذهب إليه المحدثون المنصفون في هذا ، فحسبك ما انتهى إليه
«على نصوص الطاهر» في كتابه «أوائل السور في القرآن الكريم» ،
وإليك مجمل ماقال في خاتمة كتابه :

١- إن أوائل السور تقوم على حساب الجمل .

٢- إنها تبين عدد الآيات المكية أيام كان القرآن يخشى عليه من
أعدائه في مكة ، من أن يزدوا فيه أو أن ينقصوا منه ، ودليله على ذلك :
(١) أنها وردت مع تسع وعشرين سورة من سور القرآن .

(ب) من هذه السور سبع وعشرون مكية واثنان مدنيتان ، هما
البقرة وآل عمران .

(ج) أن هاتين السورتين المدنيتين نزلتا في أول العهد المدني ، ولم يكن قد استقر أمر المسلمين كثيراً ، فهو عهد أشبه بعهد مكة .

(د) أنه حين اشتد أمر المسلمين وكانت كثرة من القارئيين والكاتبين لم تكن ثمة فوائح سور .

ولقد تتبع في كتابه «أوائل السور في القرآن الكريم» سور القرآن الكريم ذات الفوائح ، وطابق بين جملها والآيات المكية بها ، فإذا هو ينتهى إلى رأى شبه قاطع .

٢٤- علوم القرآن

ومنذ أن تلقى المسلمون كتاب الله عن رسوله وهم به معنيون .

عنى به الأولون عناية جمع ، ثم توحيد ما جمع ، ثم ضبط وشكل ، حتى إذا ما استوى الكتاب في أيديهم أخذوا ينظرون فيه ليتدبروا معانيه . وقد تمخضت هذه النظرات عن علوم مختلفة حول القرآن اتسعت لها مؤلفات كثيرة .

ولقد أحصى ابن النديم في كتابه الفهرست جملة عقد لها أبواباً ، فذكر :

١- تسمية الكتب التي ألفها العلماء في قراءته ، أى قراءة القرآن .

٢- تسمية الكتب المصنفة في تفسيره .

٣- الكتب المؤلفة في معانى القرآن ومشكله ومجازه .

٤- الكتب المؤلفة في غريب القرآن .

٥- الكتب المؤلفة في لغات القرآن .

٦- الكتب المؤلفة في القراءات .

٧- الكتب المؤلفة في النقط والشكل للقرآن .

٨- الكتب المؤلفة في لامات القرآن .

٩- الكتب المؤلفة في الوقف والابتداء في القرآن .

١٠- الكتب المؤلفة في اختلاف المصاحف .

- ١١- الكتب المؤلفة في وقف التمام .
 - ١٢- الكتب المؤلفة فيما اتفقت ألفاظه ومعانيه في القرآن .
 - ١٣- الكتب المؤلفة في متشابه القرآن .
 - ١٤- الكتب المؤلفة في هجاء المصاحف .
 - ١٥- الكتب المؤلفة في مقطوع القرآن وموصوله .
 - ١٦- الكتب المؤلفة في أجزاء القرآن .
 - ١٧- الكتب المؤلفة في عدد آي القرآن .
 - ١٨- الكتب المؤلفة في ناسخ القرآن ومنسوخة .
 - ١٩- الكتب المؤلفة في نزول القرآن .
 - ٢٠- الكتب المؤلفة في أحكام القرآن .
 - ٢١- الكتب المؤلفة في معان شتى من القرآن .
- وعد ابن النديم مع كل باب من هذه الأبواب جملة من الكتب تختلف كثرة وقلة ، حسب إحصائه وإلى عهده ، وإذا هي على هذا كثرة كثيرة ، هذا ونحن نعلم أن وفاة ابن النديم كانت قريباً من منتصف القرن الخامس الهجرى ، أى سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة (٤٣٨ هـ) ، فما بالك عما ألف بعد وفاته إلى اليوم .
- وأكبر الظن أن ما استنبط بعد عصر ابن النديم لم يكن إلا في ظل هذا الذى استنبطه ابن النديم ، وأنه لم يكن غير تفريع على ما استنبطه ابن النديم (١) .

(١) الفهرست لابن النديم (٥٠ - ٥٧) المطبعة الرحمانية .

٢٥ - إعجاز القرآن

المعجز الدال على صدق النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لا يصح دخوله تحت قدرة العباد ، وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه .

وعلى هذا فإذا قيل : إن القرآن معجز ، دل هذا على أن العباد لا يقدرُونَ على الإتيان بمثله ، لأنه لو صحَّ أن يقدرُوا عليه بطلت دلالة المعجز .

ولو كان القرآن غير خارج عن العادة لأتوا بمثله ، أو عرضوا عليه من كلام فصائحهم وبلغائهم ما يعارضه (١) .

ولا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية أن يعرف إعجاز القرآن إلا بأن يعلم أن العرب قد عجزوا عن ذلك ، وإذا أعجز أهل ذلك اللسان فهو عنه أعجز (٢) .

وقد اختلف في وجوب إعجاز القرآن على أقوال :

١- أحدها ، وهو قول النِّظام إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ ، وأحد رؤوس المعتزلة (٣) : أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم ، وكان مقدوراً لهم ، ولكن عاقهم أمر خارجي ، فهو كسائر المعجزات .

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص : ٤٣٦ - ٤٣٧) .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (ص : ١٧١) .

(٣) كانت وفاته سنة ٢٢٩ هـ .

ويرد على هذه الزركشى فى كتابه البرهان (١) فيقول : وهو قول فاسد بدليل قوله تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٢) ، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم .

ثم يقول : وأيضاً يلزم من القول بالصرفة فساد آخر ، وهو زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى ، وخلق القرآن من الإعجاز ، وفى ذلك خرق لإجماع الأمة ، فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى ، ولا معجزة له باقية سوى القرآن ، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزاً (٣) .

ويقول الباقلانى : ومما يبطل ما ذكره من القول بالصرفة ، أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه (٤) .

ويعضى الباقلانى فى رده فيقول : وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم : إن الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه ، ولا بأعجب من قول فريق

(١) البرهان (٢ : ٩٤) .

(٢) الإسراء : ٨٨ .

(٣) البرهان (٢ : ٩٤) .

(٤) إعجاز القرآن (ص : ٤٣) .

منهم : إنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب ، وإنما يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد (١) .

الثاني— أن وجه الإعجاز يرجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف ، وهو بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة ، وعلت مركباته معنى ، بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى .

الثالث— ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلية ، كقوله تعالى « قل للمخلفين من الأعراب » (الفتح : ١٦) ، وقوله تعالى في « أهل بدر : سيهزم الجمع ويولون الدبر » (القمر : ٤٥) ، وقوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » (الفتح : ٢٧) .

الرابع— ما تضمن من إخباره عن قصص الأولين وسائر المتقدمين ، حكاية من شاهدها وحضرها ، يقول تعالى : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (هود : ٤٩) .

الخامس— إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل ، وهذا مثل قوله تعالى : « إذ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا » (آل عمران : ١٢٢) ، وقوله تعالى : « وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله » (المجادلة : ٨) ، وقوله تعالى : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون » (الأنفال : ٨) .

السادس— نظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه ، ووجه إعجازه أن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كله علماً .

(١) إعجاز القرآن (ص : ٤٤) .

وقد قامت الحجة على العلم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة (١) .

ويقول الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن ، وهو يتكلم على وجوه إعجاز القرآن : ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز :

أحدها - يتضمن الإخبار عن الغيوب ، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه ، فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان ، بقوله عز وجل «وهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (التوبة : ٣٣) ، ففعل ذلك .

وقال الله عز وجل «قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد» (آل عمران : ١٢) ، فصدق فيه ، وقال تعالى في أهل بدر : «وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم» (الأنفال : ٧) ووفى لهم بما وعد .

الوجه الثاني - أنه كان معلوماً من حال النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبيائهم وسيرهم ، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمة الأمور ومهمات السير ، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه .

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم ، وإذ كان

(١) البرهان (٢ : ٩٤ - ٩٦) .

معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا متردداً إلى التعلم منهم ، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ، علم أنه لم يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي ، ولذلك قال عز وجل : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون » (العنكبوت : ٤٨) ، وقال تعالى : « وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست » (الأنعام : ١٠٥) .

الوجه الثالث - أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه (١) .

وقريباً من هذا ماساقه الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم في كتابه : إعجاز القرآن ، والرماني علي بن عيسى في رسالته : إعجاز القرآن ، والزملكاني عبد الواحد بن عبد الكريم في كتابه : التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن (٢) ، والسيوطي عبد الرحمن ابن أبي بكر في كتابه : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، وغيرهم وهم كثير (٣) .

وقد أنهى بعضهم وجوه إعجاز القرآن إلى ثمانين ، ويقول السكاكي يوسف بن أبي بكر في كتابه : مفتاح العلوم : إنه لا نهاية لوجوه إعجاز القرآن .

(١) إعجاز القرآن (٤٨ - ٥١) .

(٢) مخطوط .

(٣) كشف الظنون (ص : ١٢) مفتاح السعادة (الفهرست) .

وأقول : حسب القرآن الكريم إعجازاً ما انطوى عليه من تشريعات وأحكام جاءت على لسان ذلك النبي الأُمّي من وحى السماء ، قبل أن يبلغ العالم كماله الذى يدعيه تشريعاً وأحكاماً ، فإذا تشريع السماء وأحكامها ، التى نزل بها الروح الأمين على النبي الكريم منذ مايربى على أعوام ألف ومن نحو من نصف قرن ، تزرى بتلك التى كانت من صنع الإنسان فى عصره المتحضر ، حيث بلغ العلم فيه مبلغه ، وإذا هذه التشريعات والأحكام تصمد للتشريعات الإنسانية فتتحداهما كمالات واستقامة واستواء .

ثم حسب القرآن الكريم إعجازاً بقاءه سليماً كما أنزل لم يمسه تبديل أو تغيير ، تصديقاً لقوله تعالى «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (الحجر : ٩) .

ثم حسب القرآن الكريم إعجازاً صموده أمام حملات الذين يريدون أن ينالوا منه مطعنا ، فإذا هو هو وإذا هم هم المطعونون .

٢٦- المحكم والمتشابه

يقول الزركشى فى كتابه البرهان (١) :

المحكم : لا توقف معرفته على البيان ، والمتشابه : لايرجى بيانه .
ويحكى النيسابورى الحسين بن محمد أن فى هذه المسألة ثلاثة أقوال :

١- أحدها أن القرآن كله محكم ، لقوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته » (هود : ١) .

٢- والثانى أن القرآن كله متشابه ، لقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً » (الزمر : ٢٣) .

٣- والثالث ، وهو الصحيح ، أن منه محكماً ومنه متشابهاً ، لقوله تعالى : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » (آل عمران : ٧) .
ثم يقول الزركشى :

فأما المحكم فأصله لغة : المنع ، وأما فى الاصطلاح ، فهو : ما أحكمته بالأمر والنهى وبيان الحلال والحرام .

وقيل : هو مثل قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (البقرة : ٤٣) .

وقيل : هو الذى لم ينسخ ، لقوله تعالى : « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم » (الأنعام : ١٥١) .

(١) البرهان (٢ : ٦٨ - ٧٠) .

وقيل : هو الناسخ .

وقيل : الفرائض والوعد والوعيد .

وقيل : الذى وعد عليه ثواباً أو عقاباً .

وقيل : الذى تأويله تنزيهه يجعل القلوب تعرفه عند سماعه ،
كقوله تعالى : « قل هو الله أحد » (الإخلاص : ١) ، وقوله تعالى : « ليس
كمثله شيء » (الشورى : ١١) .

وقيل : ما لا يحتمل فى التأويل إلا وجهاً واحداً .

وقيل : ما تكرر لفظه .

ثم يقول الزركشى :

وأما التشابه ، فأصله أن يشتبه اللفظ فى الظاهر مع اختلاف المعانى ،
كما قال تعالى فى وصف ثمر الجنة « وأتوا به متشابهاً » (البقرة : ٢٥) .
واختلفوا فيه :

ف قيل : هو الذى يشبه بعضه بعضاً .

وقيل : هو المنسوخ غير المعمول به .

وقيل : القصص والأمثال .

وقيل : ما أمرت أن تؤمن به وتكل علمه إلى عالمه .

وقيل : فواتح السور .

وقيل : ما لا يدرك إلا بالتأويل .

وقيل : الآيات التى يذكر فيها وقت الساعة ومجيء الغيث وانقطاع

الآجال .

وقيل : ما يَحتمل وجوهاً ، والمحكم : ما يَحتمل وجهًا واحدًا .

وقيل : ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره .

ويقول الزمخشري في الكشف :

المحكم : ما أحكمت عبارته وحفظت من الاحتمال والاشتباه .

والمتشابه : ما استأثر الله بعلمه (١) .

ويقول القاضي عبد الجبار في مقدمة كتابه « متشابه القرآن » :

المحكم : لا يَحتمل إلا الوجه الواحد ، فمَن سمعه من عرف طريقة

الخطاب ، وعلم القرائن ، أمكنه أن يستدل في الحال على ما يدل عليه ،

وليس كذلك المتشابه ، فإنه يحتاج عند سماعه إلى فكر مبتدأ ، ونظر

مجدد ، ليَجعله على الوجه الذي يطابق الحكم أو دليل العقل (٢) .

ويقول في موضع آخر : وإن ما يعده المشبه محكمًا عند الموحد من

المتشابه ، وما يعده الموحد محكمًا عند المشبه بخلافه (٣) .

ويقول في موضع ثالث : إن المتشابه هو الذي لا يعلم تأويله إلا الله ،

وهو الذي لا سبيل للمكلف إلى العلم به ، وإنما كُلف الإيمان به .

وإنما يفارق المحكم بأنه لا يمكن أن يعلم المراد به كالمحكم ، ولا يصح

كونه دلالة كما يصح ذلك في المحكم (٤) .

(١) الكشف للزمخشري (١ : ٣٣٧ - ٣٣٨) .

(٢) متشابه القرآن (١ : ٦ - ٧) .

(٣) متشابه القرآن (١ : ٨) .

(٤) متشابه القرآن (١ : ١٣) .

ويقول في موضع رابع :

المحكم : هو الذى أحكم الله تعالى المراد به بأن جعله على صفة مخصوصة ، لكونه عليها تأثير فى المراد .

فأما المتشابه فهو الذى جعله الله ، عز وجل ، على صفة تشبه على السامع ، لكونه عليها المراد به ، من حيث خرج ظاهره عن أن يدل على المراد به ، لشيء يرجع إلى اللغة أو التعارف (١) .

ويقول في موضع خامس ، عند الكلام على وصفه ، عز وجل ، جميع القرآن بأنه محكم ، بقوله تعالى : « ألر . كتاب أحكمت آياته » (هود : ١) ، ووصفه جميعه بأنه متشابه بقوله تعالى « الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً » (الزمر : ٢٣) ، يقول : إن القرآن فيه محكم ومتشابه ، وقد ورد الكتاب بصحته فى قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » (آل عمران : ٧) فأما وصفه جميعه بأنه محكم ، فإنما أريد به أنه تعالى أحكمه فى باب الإعجاز والدلالة على وجه لا يلحقه خلل ، ووصفه جميعه بأنه متشابه ، المراد به أنه سوى بين الكل فى أنه أنزل على وجه المصلحة ودل به على النبوة ، لأن الأشياء المتساوية فى الصفات المقصود إليها ، يقال فيها : متشابهة (٢) .

ويقول التهانوى فى كتابه كشاف اصطلاح الفنون عند الكلام على المحكم : المحكم : اسم مفعول من الإحكام .

(١) متشابه القرآن (١ : ١٩) .

(٢) متشابه القرآن (١ : ٢٠ - ٢١) .

وهو عند الأصوليين من الحنفية : هو اللفظ الذى لا يحتمل النسخ والتبديل .

ثم انقطاع احتمال النسخ قد يكون المعنى فى ذاته ، بالأ يَحتمل التبديل عقلا ، كآليات الدالة على وجود الصانع وصفاته وحدوث العالم . ويسمى هذا محكماً لعينه .

وقد يكون بانقطاع الوحي لوفاة النبي ، صلى الله عليه وسلم . ويسمى محكماً لغيره .

ضد المحكم : المتشابه ، وهو اللفظ الذى لا يفهم منه المراد ولا يرجى بيانه أصلاً ، كمقطعات القرآن (١) .

ويقول عند الكلام على المتشابه :

المتشابه : اسم فاعل من التشابه ، وهو كون أحد المثليين مشابهاً للآخر ، بحيث يعجز ذهن عن التمييز .

والمتشابه عند الأصوليين والفقهاء ضد المحكم .

قالوا : القرآن بعضه محكم وبعضه متشابه ، على ما تدل عليه الآية : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » (آل عمران : ٧) .

وقيل : إن القرآن كله محكم لقوله تعالى : « الر . كتاب أحكمت آياته » (هود : ١) .

(١) كشف اصطلاح الفنون (١ : ٣٨٠ - ٣٨١) .

وأجيب بأن معناه : أحكمت آياته بكونها كلامًا حقًا فصيحًا بالغًا
حد الإعجاز .

وقيل : كله متشابه لقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابًا
متشابهًا » (الزمر : ٢٧) .

وأجيب بأنه متشابه بمعنى أن بعضه يشبه بعضًا في الحق والصدق
والإعجاز .

ثم قال :

ثم إنهم اختلفوا في تعليلهما - أي المحكم والمتشابه - على أقوال :
ف قيل : المحكم ماعرف المراد منه ، إما بالظهور أو التأويل ، والمتشابه :
ما استأثر الله بعلمه ولا يرجى إدراكه أصلا ، كقيام الساعة ، والحروف
المقطعة في أوائل السور .

وقيل : كل ما أمكن تحصيل العلم به ، سواء كان بدليل جليّ
أو خفي ، فهو المحكم ، وكل ما لا سبيل إلى معرفته فهو المتشابه .

وقيل : المحكم : ماوضح معناه ، والمتشابه نقيضه .

وقيل : المحكم : ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهًا واحدًا ، والمتشابه :
ما احتمل أوجهًا .

وقيل : المحكم : ما استقل بنفسه ، والمتشابه : ما لا يستقل بنفسه
إلا برده إلى غيره .

وقيل : المحكم : ما يدرى تأويله وتنزيله ، والمتشابه : ما لا يدرى
إلا بالتأويل .

وقيل : المحكم : ما لم تتكرر ألفاظه ، ومقابله المتشابه .

وقيل : المحكم : الفرائض ، والوعد والوعيد ، والمتشابه القصص والأمثال .

وقال الراغب : الآيات ثلاثة أضرب : محكم على الإطلاق ، ومتشابه على الإطلاق ، ومحكم من وجه متشابه من وجه .

فالمتشابه بالجملة ثلاثة أضرب : متشابه من جهة اللفظ فقط ، وهو ضربان :

أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة ، إما من جهة الغرابة ، نحو : يزفون ، أو الاشتراك : كاليد والوجه .

وثانيهما يرجع إلى الكلام المركب ، وذلك ثلاثة أضرب :

ضرب لاختصار الكلام ، نحو : « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى » فانكحوا ما طاب لكم » (النساء : ٣) .

وضرب لبسطه ، أى لبسط الكلام ، نحو : « ليس كمثله شيء » (الشورى : ١١) ، لأنه لو قيل : ليس مثله شيء ، كان أظهر للسامع .

وضرب لنظم الكلام ، نحو : « أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما » (الكهف : ١) ، إذ تقديره : أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا .

ومتشابه من جهة المعنى فقط ، وهو أوصاف الله تعالى ، وأوصاف القيامة ، فإن تلك الصفات لا تتصور لنا ، إذ لا تحصل في نفوسنا صورة ما لم نحس .

ومتشابه من جهتيهما ، أى من جهة اللفظ والمعنى ، وهو خمسة
أضرب :

الأول : من جهة الكمية كالعموم والخصوص ، نحو : « فاقتلوا
المشركين » (التوبة : ٦) .

والثانى : من جهة الكيفية ، كالوجوب والندب ، نحو : « فانكحوا
مأطاب لكم » (النساء : ٣) .

والثالث : من جهة الزمان والمكان ، كالنسخ والمنسوخ .

والرابع : من جهة المكان والأمر التى نزلت فيها نحو « وليس البر
بأن تأتوا البيوت من ظهورها » (البقرة : ١٨٩) ، فإن من لا يعرف فى
الجاهلية يتعذر عليه تفسير مثل هذه الآية .

والخامس : من جهة الشروط التى بها يصح الفعل ويفسد ، كشرط
الصلاة والنكاح .

ثم إن جميع المتشابه على ثلاثة أضرب :

ضرب لاسبيل إلى الوقوف عليه ، كوقت الساعة .

وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته ، كالألفاظ الغريبة والأحكام
المغلقة .

وضرب متردد بين أمرين يختص بمعرفته بعض الراسخين فى العلم ،
ويخفى على من دونهم (١) .

وفى هذا العرض المفصل عن المحكم والمتشابه غناء ، وماسيق يرجح
بعضه بعضاً ، غير أن كله محتمل .

(١) كشف اصطلاح الفنون (١ : ٧٩٢ - ٧٩٥) .

٢٧ - اللغات في القرآن

في القرآن الكريم ألفاظ تتفق ونظيراتها في غير لغة العرب ،
منها :

- الطور ، ومعناها : الجبل بالسريانية .
- طفقا ، أى قصداً ، بالرومية .
- هدنا ، أى تبنا ، بالعبرانية .
- السجل ، أى الكتاب ، بالفارسية .
- الرقيم ، أى اللوح ، بالرومية .
- السندس ، أى الرقيق من الستر ، بالهندية .
- الاستبرق ، أى الغليظ ، بالفارسية ، بحذف القاف .
- السرى ، أى النهر الصغير ، باليونانية .
- طه ، أى طأ يارجل ، بالعبرانية .
- سينين ، أى حسن ، وقيل : مبارك .
- المشكاة ، أى الكوة ، بالحبشية ، وقيل : الزجاجة تسرج .
- الدُرَى ، أى المضيئ ، بالحبشية .
- الملة الأخرى ، أى الأولى ، بالقبطية .
- وراءهم ، أى أمامهم ، بالقبطية .
- بطائنها ، أى ظواهرها ، بالقبطية .

ناشئة الليل ، نشأ ، بلغة الحبشة : قام من الليل .

كفلين ، أى ضعفين ، بلغة الحبشة .

القسورة ، أى الأسد ، بلغة الحبشة (١) .

وقد ذهب الدارسون فى هذا مذاهب :

١- فممنهم من يقول : ليس فى القرآن من غير العربية شئ .

٢- ومنهم من يقول : إن فيه ألفاظاً من ألفاظ الأعاجم .

٣- ومنهم من يقول : إن هذه الحروف كانت بغير لسان العرب فى الأصل ، فلما لفظت بها العرب بالسننها فعربتھا صارت عربية ، فهى عربية نقلاً أعجمية أصلاً .

٤- ومنهم من يقول : إن هذه الألفاظ وافقت لغة العرب فيها لغة العجم (٢) .

وأقول : ما من لغة من لغات العالم إلا وأخذت وأعطت ، وما تأخذه تصقله وتقيسه بمقاييسها وتحوكه على منوالها ، فإذا هو منها ، وإن كان يبقى يمت ببعض الشبه إلى أصله الأول ، على هذا تعيش اللغات وبهذا تحيا ، ولا يمكن أن يقال إن ألفاظاً معدودة فى اللغة ، أو تراكيب معدودة فيها ، تخلع عنها ثوبها وتردها لغة أخرى ، فلقد أخذت اللغة العربية من غيرها ما فى ذلك شك ، ولقد صقلت اللغة العربية هذا المأخوذ فإذا هو على بنيتها وعلى مقاييسها وأوزانها . ومن حسن حظ العربية أن هذا المأخوذ

(١) البرهان (١ : ٢٨٨ - ٢٨٩) الإتيان (١ : ١٣٩) .

(٢) اللغات فى القرآن ، إسماعيل بن عمرو (٨ - ٩) . البرهان (١ :

٢٨٥ - ٢٩٠) .

عن غيرها قلة محصورة تكاد تعد على الأصابع ، ثم هو على قلته على ميزان العربية وعلى نمطها ، وبعيد أن تنخلع عن العربية صفتها لهذه القلة من الألفاظ ، التي أصبحت وكأنها من العربية زنة ، ولم يبق لها إلا دلالاتها الأولى التي كانت لها في لغاتها ، وما هذا بضائر العربية ولا بضائر غيرها من اللغات التي تأخذ ، فتلك حياة اللغات وبدون هذا لا تطرد ولا تنمو .

٢٨ - خاتمة

وبعد . فما كان أرغبني ، منذ أن ملكت قلمي شيئاً ، إلى أن أكتب عن رسول الله صفحات طويلة ، ثم عن الإسلام صفحات طويلة ، أبسط في الصفحات الأولى سيرة الرسول نقية خالصة ، وأجمع فيها كل ماله حياته ، وما سبق هذه الحياة الكريمة ، على نحو فيه استقصاء وفيه تحرير ، وفيه جمع لما تشتت وتفرق ، لأجعل من هذه الصفحات غنية عن كتب ، وغنية عن مراجع مختلفة قد تعز في الكثير ، وأبسط في الصفحات الثانية الإسلام ديناً خاتماً للأديان ، ورسالة كريمة للإنسانية جمعاء ، وكلمة توحيد جاءت لتجمع العالم حول إله واحد ليجتمعوا على نهج واحد ، ولتكون وحدة المعتقد معها وحدة المسعى ووحدة القلوب جميعاً على الطريق .

ولقد أخذت أعد لهذا وذاك منذ أمد بعيد ، وكلما أوشكت أن أضع القلم جدّ لي ما يجعلني أصل ما أظنني فرغت منه .

وأحببت أن أمهد لهذين البحثين المرتقبين بهذين الموجزين الحاضرين ، والمرء حريص على أن يمهّد لخطاه ، ثم هو حريص على ألا يبيت على رأى ، ولا يراح ، إلا أن يسمعه عنه السامعون ويقرأه له القارئون .

ورأيتني بهذين الموجزين حين أطلع بهما الناس أكون قد حققت حرصين ، فبادلت الناس رأياً أعرف رأيهم فيه ، وأرحت نفسي حين لم أعقلها عن أن تنطق .

والله أسأل السداد فيما كان ، والعون والتوفيق فيما سيكون .

(تأريخ القرآن)

المراجع

- ١- الابتهاج في الكلام على الإسراء والمعراج - محمد بن أحمد .
- ٢- الإتقان في علوم القرآن - السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر .
- ٣- أحكام القرآن - ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله .
- ٤- أسباب نزول القرآن - الواحدى النيسابورى أبو الحسن على ابن أحمد .
- ٥- الاستيعاب في معرفة الأصحاب - أبو عمر يوسف بن عبد البر .
- ٦- أسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الأثير عز الدين على ابن محمد .
- ٧- الإشارة إلى سيرة المصطفى وآثار من بعده من الخلفاء - مغلطاي علاء الدين بن فليح .
- ٨- الإصابة في تمييز أسماء الصحابة - ابن حجر العسقلاني أحمد ابن علي .
- ٩- الأصنام في الجاهلية والإسلام - ابن الكلبي أبو المنذر هشام ابن محمد .
- ١٠- أصول الأحساب وفصول الأنساب - الجوزاني أبو علي محمد العبيدي .
- ١١- إعجاز القرآن - الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب .

١٢- إعجاز القرآن - الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم .

١٣- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام - قطب الدين محمد

ابن أحمد .

١٤- أنساب العرب - الصحارى سلمة بن مسلم .

١٥- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون - الحلبي على بن

برهان الدين .

١٦- أوائل السور في القرآن الكريم - على نصوص الطاهر .

١٧- إيضاح المدارك في الإفصاح عن العواتك - الزبيدي محمد

ابن محمد .

١٨- البدء والتاريخ - البلخي أبو زيد أحمد بن سهل .

١٩- البرهان في علوم القرآن - الزركشى محمد بن عبد الله .

٢٠- البشارات التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في

في العهدين - رحمة الله الهندي .

٢١- بلوغ الأرب في أحوال العرب - الألوسى محمود بن عبد الله .

٢٢- بلوغ الأرب في مآثر العرب - العطار محي الدين بن إبراهيم .

٢٣- تاج الابتهاج على النور الوهاج في الإسراء والمعراج -

البرزنجي جعفر بن إسماعيل .

٢٤- تاريخ الأمم والملوك - الطبري أبو جعفر محمد بن جرير .

٢٥- تاريخ الخط العربي - الكردي محمد طاهر بن عبد القادر .

- ٢٦- تاريخ الخط العربي - دكتور يحيى نامى .
- ٢٧- تاريخ دمشق - ابن عساكر على بن الحسن .
- ٢٨- تاريخ الطبرى = تاريخ الأمم والملوك .
- ٢٩- تاريخ القرآن وغرائب رسمه - الكردى محمد طاهر بن عبد القادر .
- ٣٠- تأويل مُشكل القرآن - ابن قتيبة عبد الله بن مسلم .
- ٣١- التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن - الزملى عبد الواحد بن عبد الكريم .
- ٣٢- تواريخ مكة المشرفة - الأزرقى محمد بن عبد الله .
- ٣٣- الدرر فى اختصار المغازى والسير - ابن عبد البر أبو عمر يوسف .
- ٣٤- رسالة فى إعجاز القرآن - الرمانى على بن عيسى .
- ٣٥- رسالة فى زواج النبي ، صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة - مجهولة المؤلف .
- ٣٦- رسالة فى غزوات النبي ، صلى الله عليه وسلم - الخازن على ابن أنجب .
- ٣٧- الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية - على بن أبي الحزم .
- ٣٨- الروض الأنف - السهيلي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله .
- ٣٩- رسالة محمود حمدى الفلكى - الترجمة العربية .

- ٤٠- سيرة ابن هشام - ابن هشام عبد الملك .
- ٤١- السيرة الحلبية = لإنسان العيون في سيرة الأمين المأمون .
- ٤٢- شرح السيرة النبوية - أبو ذر محمد بن مسعود الخشني .
- ٤٣- شرح المواهب اللدنية - الزرقاني محمد بن عبد الباقي .
- ٤٤- صفة جزيرة العرب - الهمداني الحسن بن أحمد بن يعقوب .
- ٤٥- صفة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم - رواية علي بن أبي طالب .
- ٤٦- الطبقات الكبرى - ابن سعد أبو عبد الله محمد .
- ٤٧- العقد الفريد - ابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد .
- ٤٨- غيث النفع في القراءات السبع - السفاقي أبو الحسن علي النوري .
- ٤٩- الفرقان - ابن الخطيب محمد بن عبد اللطيف .
- ٥٠- الفهرست - ابن النديم محمد بن إسحاق .
- ٥١- كتاب المصاحف - السجستاني أبو بكر عبد الله بن سليمان ابن الأشعث .
- ٥٢- كشف اصطلاحات الفنون - التهانوي محمد بن علي .
- ٥٣- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل - الزمخشري محمود ابن عمر .
- ٥٤- اللغات في القرآن - إسماعيل بن عمرو المقرئ .

- ٥٥- متشابه القرآن - القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني .
- ٥٦- مجاز القرآن - أبو عبيدة معمر بن المثنى .
- ٥٧- المحكم في نقط المصاحف - الداني أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني .
- ٥٨- معترك الأقران علوم القرآن - السيوطي عبد الرحمن ابن أبي بكر .
- ٥٩- معجم البلدان - ياقوت بن عبد الله .
- ٦٠- مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم - الواقدي أبو عبد الله محمد بن عمر .
- ٦١- الناسخ والمنسوخ - أبو القاسم هبة الله بن سلامة .
- ٦٢- نسيم الرياض في شرح شفاء ، القاضي عياض - الخفاجي أحمد شهاب الدين .
- ٦٣- النشر في القراءات العشر - ابن الجزري أبو الخير محمد ابن محمد .
- ٦٤- النور الوهاج في قصة الإسراء والمعراج - البرزنجي زين العابدين ابن محمد .
- ٦٥- الوزراء والكتاب - الجهشيارى أبو عبد الله محمد بن عبدوس .

الفهرست الباب الأول محمّد الرسول

صفحة

١١	١ - رسول الله
٢١	٢ - الجزيرة العربية قبل الرسالة
٢٣	٣ - الإرهاص بميلاد الرسول
٢٦	٤ - رسالة محمد صلى الله عليه وسلم
٣٠	٥ - بدء الدعوة
٣٩	٦ - الأنصار
٤٣	٧ - غزوات الرسول
٥٢	٨ - عرض لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم
٥٨	٩ - كتاب الله

الباب الثاني القرآن الكريم

٦٣	١ - أمية الرسول
٦٩	٢ - نزول الوحي
٧٢	٣ - عدد الآيات
٧٨	٤ - ترتيب الآيات
٨٣	٥ - أسماء السور
٨٤	٦ - ترتيب السور
٩٥	٧ - الجماع للقرآن
٩٦	٨ - الحكمة في نزول القرآن منجما
٩٩	٩ - الوحي ونزول القرآن على سبعة أحرف
١٠٠	١٠ - اسم كتاب الله

THE HISTORY OF THE QUR'ĀN

BY
ĪBRAHĪM AL - ĀBYARĪ

Second Editition

ENLARGED
and
REWRITTEN

Publishers

*DAR AL - KITAB AL - MASRI
CAIRO*

*DAR AL - KITAB AL - LUBNANI
BEIRUT*